

اللعب بالديناميت

فؤاد حسين - عصام الصاوى

من بطولات أكتوبر٧٣

اللعب بالديناميت

قصة :   عصام الصاوى

فؤاد حسيـــــن

تصديق المخابرات الحربية للنشر

بتاريخ١٨/١١/١٩٩٩

- ١ -

فى نهاية شهر يناير عام سبعة وستين أنهى النقيب عاطف دورة مدافع الهاون بامتياز، وقائده المقدم ممدوح هنأه على الامتياز وحمله مسئولية قيادة السرية بعد أن أصبح مؤهلا لذلك.

كان على النقيب عاطف أن يرتب دورة داخليه لتدريب ضباطه وقادة الأطقم على المعلومات التى حصل عليها ليرفع المستوى إلى الدرجة التى يرضى عنها وفى نهاية الدورة حضر المقدم ممدوح تمرين الرماية الذى حصل على تقدير الامتياز أيضا لضباطه أبو العباس وعلى.

- ٢ -

ولما كان اليوم الرابع عشر من مايو كانت الكتيبة تتقدم شرقا فى سيناء ضمن خطة التعبئة حتى استقرت فى منطقة الكونتلا أقصى جنوب شرق الحدود المصرية وفى الخامس من يونيه خرجت مجموعة الاستطلاع وفيها المقدم ممدوح والنقيب عاطف لدراسة المنطقة وفوجئوا بهجوم القوات الاسرائيلية وأصيب المقدم ممدوح بعدها انسحبت القوات كلها إلى غرب القناة متفرقة إلا أن النقيب عاطف استطاع الانسحاب ومعه كل أفراد سريته ومعظم معداته علاوة على تجميعه لبعض عناصر الكتيبة وعاد بهم إلى موقع الكتيبة غربا وحفظها له المقدم ممدوح أن بطولته كانت فى ذلك فكان كبيراً فى نظره.

- ٣ -

ملأ الغيظ قلب النقيب عاطف عندما كان الزعيم يلقى خطاب التنحى يحمل نفسه مسئولية الاحداث وكيف أنه يتنحى فى أقسى المراحل الحرجة من عمر الأمة العربية متخليا عن قيادة شعب مصر فى أحلك المواقف بعد أن أفقده سيناء والجيش معا وبعد أن حطم أحلام الشعب فى مستقبل رخاء قريب. قال أن النهاية لا يمكن أن تكون هكذا - رغم شعور التشفى عندما رأى الزعيم يكاد يبكى على شاشة التلفزيون.

ولكن عندما خرج الشعب فى مسيراته ينادى ببقاء ناصر أحس أن ذلك هو الأكثر مناسبة.

- ٤ -

ترقى عاطف إلى رتبة الرائد وتحمل مسئولية إدارة مكتب المخابرات غرب القناة ينسق أعمال الدوريات المصرية شرق القناة مع أعمال البدو فى منظمة سيناء العربية وتتجمع لديه المعلومات التى حصلوا عليها.

وتوقف الرائد عاطف عند عملية تجميع الأسلحة والمعدات المتروكة شرق القناة فى منطقة

القنطرة وتحميلها على عربات قطـار سـيتجه إلـى الشـرق ليجعلوهـا جـاهزة للاسـتخدام ضـد المصريين مرة تالية وقال لابد أن يتوقف ذلك وإلا جن من القهر.

قبل أن يتحرك القطار شرقا طار فوقه تشكيل من القاذفـات المصـرية فـى مهـام مزدوجـة للاستطلاع وتدمير التكديسات فى منطقة محطة القنطرة شرق ونجحـت جانـب كبيـر مـن المهمـة جزئيا فقد دمر جانب كبيـر مـن المعـدات واحـدثوا خسـائر كبيـرة فـى أفـراد جـيش الـدفاع الاسرائيلى.

ساعات قليلة حتى حل الظلام وعبر الرائد عاطف ومعـه مجموعـة مـن الضـباط والجنـود ليجدوا فى انتظارهم الزملاء من بدو سيناء وقد أعدوا كل مـا طلـب مـنهم وتوجهـوا جميعـا إلـى منطقة محطة القنطرة كل منهم يعرف واجبه وقبيـل الفجـر كانـت الانفجـارات تـدوى بينمـا كـل شحنة القطار مشتعلة ونسفت كل تكديسيات الذخيرة والقطـار نفسـه وجـزء كبيـر مـن القضـبان الحديدية وأفسد على الإسرائيليين الوليمة التى أعدوها.

– ٥ –

لم يمر سوى شهر واحد فقط حتـى رصـدت عيـون رجـال الرائـد عـاطف شـرق القنـاة وصول قوات جديدة لتدعيم المواقع فى رأس العش شمال القنطـرة وسـرعان مـا نسـقت القـوات المصرية أعمال الاستطلاع ودفع قائد قطاع بورسعيد بقواتـه لتحتـل كمينـا شـرق القنـاة ينتظـر وصول القوات الجديدة ليقيموا لهم احتفالا على الطريقـة المصـرية. بـالطبع كـان الرائـد عـاطف يشرف على تنفيذ الكمين وأصر على أن يكـون فـى اسـتقبال قـوات الكمـين عائـدة بعـد تنفيـذ المهمة التى أسفرت عن تـدمير معظـم القـوة الاسـرائيلية وعـادوا ومعهـم الأسـلحة والغنـائم وبعض الأسرى أهمهم الرائد شـلومو إبراهـام اليعـازر قائـد الوحـدة المدرعـة وخـرائط عليهـا أوضاع القوات واتجاهات الدفاع والهجوم فى هذه المنطقة، شـلومو كـان جريحـا ويحمـل بطاقـة عسكرية إلى جوار بطاقة أخرى عليها صورته. البطاقة الثانية كانـت تحمـل اسـم صـالح موسـى صادرة من إدارة الهجـرة والجـوازات والجنسـية التابعـة لـوزارة الداخليـة المصـرية وعليهـا صورة شلومو وتوضح أنه فلسطينى من قطاع غزة.

تحت عدسة مكبرة وضعت البطاقتان أمام الرائـد عـاطف فـى الوقـت الـذى طـارت فيـه هيلوكبتر تحمل شلومو إلى مستشفى المعادى العسكرية. الرائـد عـاطف حمـل البطاقـة وراح بهـا إلى المقدم ممدوح الذى ترقى ثـم نقـل إلـى قسـم مكافحـة الجاسوسـية بـالإدارة وجلسـا معـاً يستعيدان أيام التدريب قبـل الحـرب ويتـذكران الموقـف فـى الانسـحاب ويقلبـان معـا بطاقـات شلومو يحاولان أن يجدا فيها مكسبا جديدا ثم خططوا معا.

يومان وشلومو بين الحياة والموت على سريره فى مستشفى المعادى ورجال المقدم ممدوح يتصلون بإدارة الجوازات وسافر بعضهم للإسكندرية للتحرى عن صالح موسى الفلسطينى الذى تبين أنه طالب بكلية الهندسة بالإسكندرية وسيرته معروفة لكل جيرانه بأخلاق طيبة وكان يشترى لهم ما يريدون من قطاع غزة ويبيع لهم محاولا فى تجارة صغيرة أن يكسب تكاليف دراسته بالكلية ولم يرصد عنه أى مخالفات إلا أنه سافر فى شهر مايو إلى غزة ولم يعد بعدها وقدروا أن الحرب أعاقتة عن العودة فبقى مع أسرته.

فريق الاستجواب برأسه الرائد عاطف كانوا يحيطون بشلومو فى لحظات إفاقته الأولى ثم استلموه فترة بعدها كان صحيح البدن فى معسكر الأسرى ينقل إلى العقيد ممدوح ورجاله أخبار الأسرى الاسرائيليين فى تدريب له على تجميع المعلومات والاتصال واختبارا له، بعدها عاد إلى إسرائيل فى تبادل الأسرى وأصبح يرسل بانتظام إلى العقيد ممدوح ما يطلبه من المعلومات فى المنطقة الجنوبية لعمليات جيش الدفاع الاسرائيلى واستمر حتى انتهت عمليات ١٩٧٣ ويضع العقيد ممدوح والمقدم عاطف المعلومات كلها أمام مدير الجهاز ويقيمونها معاً فكانت دائماً تخدم المجهود الحربى.

– ٦ –

انفجار دوى فى الساعة الثانية بعد منتصف الليل فى منطقة محطة البلاح غرب القناة رصده رجال المقدم عاطف ووجدوا أن دورية قد نسفت قضبان السكة الحديد المتجه إلى بور سعيد وذلك لم يكن هاما فإن القطار قد توقف سيره من شهور طويلة مضت. المهم فى الحادث أن الاحتمال الوحيد لذلك هو كيفية عبور داورية اسرائيلية إلى هذه المنطقة لتنسف خطا غير مستخدم.

اكتشف المقدم عاطف أن هذه العملية لا يقوم بها الجيش الاسرائيلى مخاطراً بنتائج غير هامة على الاطلاق وأن هذه العملية كانت من الداخل. وتتبع قصاص الأثر الأقدام بعدها قبضوا على عصابة من العاطلين زعيمهم سيد سكر ونشط رجال مكتب المخابرات فى اثره بعدها قبضوا عليه وأربعة آخرين وحكمت المحكمة على الأربعة الأوائل منهم بالاعدام شنقاً والخامس عشر سنوات أشغال شاقة فقد كان سيد سكر مرسلا من قبل القوات الاسرائيلية بالطبع.

دائماً نتائج أعمال المقدم عاطف كان يعرضها على العقيد ممدوح فهو رئيسه المباشر وكذلك كان يتلقى تخطيط العمليات القادمة من الشرق عن طريقه وتآلفا حتى أصبح كل منهما يفهم ما يريده الآخر

عن بعد وكانت تكفى بضع كلمات قصيرة فى التليفون بعدها يتحرك المقدم عاطف فى الاتجاه المخطط له. هذه المرة اختلف الموقف فإن الشيخ جديع قد حجزته الحرب عن العودة إلى الشرق بعد أن انتهى من تسوق الأصناف التى يحتاجها من سوق السويس ثم انتظر سبعة شهور كاملة يحاول خلالها أن يعود للشرق بأى طريق ولم يفلح حتى استطاع أن يصل إلى مكتب المقدم عاطف ومنعه الجندى من المقابلة فإن هناك اجتماعاً بين المقدم عاطف والعقيد ممدوح الذى حضر من القاهرة لينسق الأعمال وانتظر الشيخ جديع فى حديقة المبنى حتى ينتهى الاجتماع.

العقيد ممدوح خارجا من المبنى يتوقف أمام الشيخ جديع ليلقاه بالأحضان فلم يكن يتوقع أن يراه بعد كل هذه السنوات ونعود إلى أيام قديمة يتذكر فيها الشيخ جديع معاناته فى السفر شرقا وغربا حتى ساعده المقدم ممدوح.

يطلب الشيخ جديع السفر شرقا ليتصل بأهله ولكن كل الطرق مسدودة حتى الصليب الأحمر لم يعد فى مقدوره تقديم هذه المساعدة.

الريس شفيق هو ريس ومدير فنار أبو الدرج على الجانب الغربى لخليج السويس يحضر من آن لآخر إلى المقدم عاطف يقدم تقريره الأسبوعى لمراقبة التحركات فى خليج السويس حضر بالصدفة المناقشة بين العقيد ممدوح والمقدم عاطف والشيخ جديع واستمع كثيراً حتى كانت لحظة عندما تلاقت عيون الرجال قال أنا أعرف كل شبر على الشاطئ الشرقى وأستطيع توصيل الشيخ جديع إلى هناك إذا أردتم.

التقط الخيط العقيد ممدوح وسافر إلى القاهرة يخطط ويدبر ويصدق على العمليات القادمة وبطلها الريس شفيق والشيخ جديع الذى سافر شرقا ليعود بعد أسبوع يحمل معلومات رائعة ويطلب من العقيد ممدوح معاودة السفر والريس شفيق يتطوع للدورية الليلية.

وتتوالى الدوريات تحمل بعض البدو وكثير من رجال داوريات خلف الخطوط ترصد وتحكم التخطيط عن أعمال وأوضاع العدو فى المنطقة.

بعد أربعة دوريات رصد الاسرائيليون رحلات الشيخ جديع فى لنش الريس شفيق واستطاعوا الامساك به على الضفة الشرقية للقناة وقبض على كل رجال اللنش ومعظمهم كان من البدو من منظمة سيناء العربية.

كان بعدها أن تجمهر البدو أمام مكتب الحاكم العسكرى الاسرائيلى معتصمين يطلبون الأذن بالسفر إلى مصر أو عودة أبناءهم منها.

قائد القطاع الجنوب لسيناء لم يكن غبيا وسمح لهم بالسفر شرط أن تتم موافقة السلطات المصرية على هذه الرحلات تحت سيطرة الاسرائيليين وأن تتم الرحلات نهاراً متأكدا أن المصريين سوف يفشلون فى هذا الترتيب وأن قيادات الجيش لابد أن ترفض ويفقد بذلك البدو ولادهم لمصر ويميلون إلى جانبهم.

فى ضوء النهار أمام فنار أبو الدرج لاح فى الأفق اللنش وعليه فردان فقط هما الريس شفيق والشيخ جديع. وابتسم المقدم عاطف فقد كانت الخطة التى وضعها العقيد ممدوح وصدق عليها من الإدارة قد لاحت بوادر نجاحها فإنه كان يتوقع ذلك بعد كل رحلة.

وأعلن للبدو أنه يمكن تحديد رغباتهم فى السفر وجدول الرحلات إلى الشرق مرة واحدة أسبوعيا ظهر الأربعاء القادم أولها وأحبط مخطط قائد القطاع الجنوبى وحقق مطالب البدو فى الانضمام إلى ذويهم وأرسل مع كل الرحلات رجال يجوسون خلال سيناء يسجلون ما يرون ويرسلون مع اللنش أسرارهم وتحياتهم وكانت رحلات لنش فنار أبو الدرج أولى خطوات التطبيع غير الرسمى مع اسرائيل.

بعد النجاح المستمر لأعمال المقدم عاطف اختاره العقيد ممدوح ليكون له مساعدا بالإدارة فكان ذلك نجاحا كبيراً لكليهما أن تجمعا معاً مرة أخرى فى أعمال أكبر وأخطر.

– ٨ –

كما أن للموساد مكاتب فى جميع أنحاء العالم تجمع الأخبار والمعلومات لصالح اسرائيل، أيضاً المصريون لهم مكاتبهم يدعمونها بأفضل العناصر ولا تترك أبدا فرص دعم المجهود الحربى.

اختار عزيز أن يسافر إلى النمسا بعد أن شارف على الأزمة فإنه يصطدم دائما بالرفض عندما يحاول أن يجد عملاً وكادت جيوبه أن تصبح فارغة للأبد عندما قرر السفر محاولاً الخروج من الدائرة الضيقة واستدان ثمن التذاكر ليجد نفسه فى اليوم التالى على مقهى فى شارع ويزنجوف بالميدان الكبير حيث تجمع المتعطلون من كل الجنسيات.

قبل الندم أو الانتحار اشارت أولجا إلى عزيز أن يتبعها وأصبح مقره الدائم هذا المقهى وشقة أولجا التى سهلت له فرصة العمل والجنسية مقابل فحولته ثم إستساغ أن يجلس دائما ينتظر النقود من يد أولجا بعد أن فقد عمله حتى صاده رجال الموساد وقرر أن يستمر معهم بعد أن امتلأ جيبه وأصبح كمقاول الأنفار يستقبل المصريين ويورد بعضا منهم للموساد بعد أن يورطهم فى الجنس أو الخمر أو التعطل والافلاس واستمر سنوات يمارس عمله تحت بصر رجال المخابرات المصرية المنتشرون فى المدينة.

المقدم عاطف المسئول عن اتجاه دول أوربا فى قسم مكافحة الجاسوسية أمامه ملف عزيز، واضعاً اياه دائماً على قوائم ترقب الوصول إلى مصر يترصد له عودة مفاجئة فى زيارة ولو خاطفة وذلك بعد أن أبعدوه مراراً عن هذا المجال ولكنه كان دائماً يعود إليه مصراً فلم يفلح أبد أن يكون شيئا لسنوات مرت كثيرة.

فجأة ركبت عزيز النخوة ولابد أن يرى أمه قبل أن تموت وأولجا فرحت أنها سترى القاهرة وتزور الأهرام التى شاهدتها فى التليفزيون وانطلقت تحدث أولادها أنهم سوف يرون جدتهم لأبيهم وأعمامهم والمتحف المصرى وأبو الهول وعزيز ينتفخ ويتورم متوهماً أنه سيكون زعيماً للفريق النمساوى فى القاهرة ودليلاً يعرفهم بأهلهم وأصولهم. وسمح له رئيسه فى قطاع المخابرات الاسرائيلية أن يسافر إلى القاهرة فى رحلة خمسة عشر يوماً فقط وألا يتأخر وإلا فسوف يغضبون إن تأخر فإنهم لا يستطيعون العمل بدونه هناك !!!

فى مطار القاهرة تركوا عزيز وأسرته يتجولون وتركوهم ليصلوا إلى الحلمية فى الواحدة والنصف صباح يوم من أيام خريف القاهرة.

المقدم عاطف وقوته يرصدون الحركة وبدأ العمل الجدى للقبض على عزيز الذى لم يكن متواجداً فى بيت الأم العجوز وكادت العملية تفشل إلى أن استطاع أن يعرف أن أخيه الأكبر فى الشقة المقابلة ودق الجرس لتقف أولجا مشدوهة وأطفالها ذوى العيون الزرقاء حولها بملامحهم الأوربية متجمدون من دخول الرجال إليهم.

والمقدم عاطف متوقعا المقاومة عيناه تدور ليرى عزيز اصابه هو الآخر الذهول مما يحدث غير فاهم أنه المطلوب واستسلم ببساطة.

سيدة مصرية اندفعت من الداخل خلف زوجها شقيق عزيز تصرخ من الهول والرعب مصدومة لرؤية رجال اقتحموا بيتها وقبضوا على شقيق زوجها العائد من الغربة وسط أهله تخاف الفضيحة.

توقف نبض المقدم عاطف وتراءت له احداث سنوات بعيده واندفع الدم إلى كل أطرافه وعيناه لا تتحول عن الجميلة الخائفة تولول هلعا وتندب الحظ وتلعن زوار الفجر الذين لا يقدرون حرمات البيوت صارخة أن يكف الظلم عنهم لقد كانت مشيرة حبيبة زمان التى تمناها فى صباه عرفها على الفور ولم تعرفه وسط رجاله بعد أن طار نصف شعر رأسه وأبيض الباقى. وتمنى عاطف لو أحاطها بذراعيه يهدئ من روعها ولكن لم يفعل وسحب عزيز من بين أهله وأولجا البيضاء ذات العيون الزرقاء وانطلق نحو الإدارة يحس بالفخر أنه أتم

المهمة. وتداعت فى فكره خيالات الحب القديم الذى مضى منذ ربع قرن من السنين وابتسم فى وقار عندما وجد المقدم عاطف ينظر إليه متعجباً من صمته الطويل.

– ٩ –

كثرة العمل اجهدت المقدم عاطف مع كثرة التدخين والسهر الطويل حتى فاجأته اغماءة طويلة أفاق بعدها فى المستشفى وتقرر سفره على الفور لإجراء عملية فى القلب تعيد إليه الكفاءة. وسافر إلى لندن يجرى الجراحة ليفاجئونه بعملية أخرى لاتمام الشفاء وفترة نقاهة طويلة قضاها فى الفندق الذى يطل على حديقة الهايدبارك يمارس فيها رياضة المشى كل يوم.

ويتوالى على خاطره السنوات السابقة وما استطاع أن يقدمه فيها للوطن ويقيس عليها السنوات القادمة بقلب مريض متخوفاً أن يحال للتقاعد.

فى حديقة الهايدبارك رصدوه ودفعوا إليه ناتالى، هذه السيدة الجميلة التى تتوقف عندها العيون لتبدأ معه الرحلة التى يخطط لها ودائما عندما يقرر الايقاع بأحد العملاء أو تجنيدهم وعرف على الفور ما تهدف إليه وإن ظل صامتاً دائماً.

تحاول ناتالى تجنيد المقدم عاطف وتعرفه على رجل الموساد ويدبرون تصويره فى اجتماعاتهم لا يدرون أنه قد حصل على التصديق بمسايرتهم على طول الخط آملا فى اكتشاف المزيد عن عناصر الموساد فى لندن.

اقتنع تنظيم الموساد فى لندن بموافقة المقدم عاطف بعد أن أظهر لهم اقتناعه بأن الجيش المصرى سيحيله للتقاعد بعد أن انخفضت كفاءته الطبية والبدنية وأنه لابد أن يحقق ثروة لم يستطع تحقيقها أثناء الخدمة بالجيش.

بدأ تدريب المقدم عاطف واستمر فترة حتى اجاده بل وأثار اعجابهم وكافأوه بالدولارات والشيكات والهدايا عندما ودعوه فى مطار هيثرو بعد أن أقنعهم بأن قريب له سينتظره فى مطار القاهرة حتى يستقبله فى قاعة كبار الزوار فلا يفتشون أمتعته ويمر بما يحمل من أجهزة وأحبار سرية وكاميرات وأجهزة تسجيل متطورة. وارتفعت يده تشير بالتحية إلى ناتالى وريمون صديقها الذى كان قائما بتدريبه.

سعادة ضباط الموساد كانت بالغة للغاية عندما كانت رسائل المقدم عاطف تصل إليهم بانتظام تحمل كل المعلومات التى طلبوها عن الطرق والوحدات والكبارى والموانى والمطارات والتحركات وأسماء القادة الذى عينوهم فى مناصب جديدة. والمقدم عاطف يتحرى باستمرار أن يكون فى الصورة التى لا تثير شكوكهم ليبدو كل شئ طبيعيا يساعده فى كل المواقف

ضباطه المعاونين ويرسلان معا التقرير الأسبوعى على العناوين التى حدودها أو يفتح معهم الاتصال على الشبكات اللاسلكية.

واستمرت هذه العلاقة جيدة فأسندوا إليه عمليات التقاط المعلومات من عملائهم فى مصر من نقط المقابلة أو توصيل مستحقاتهم واستمر ذلك قرابة عامين حتى تجمعت كل الخيوط عن هذه الشبكة فى مصر ووضعوا فى الانتظار إلى حين.

أصدرت المخابرات أوامرها بالقبض على الجميع فى وقت واحد وأن يرسل المقدم عاطف تقريره الأخير للموساد الاسرائيلى شكراً على الطريقة المصرية فى رسالة مفتوحة عبر الجهاز اللاسلكى والذى رفع الهوائى الخاص به فوق مبنى المخابرات والتقط الموساد الرسالة كاملة ولم يعلق عليها أبدا.

وتقابلت أيدى المدير مع المقدم عاطف فى لقاء حميم وابتسامة النصر والفرحة تحيط بهم جميعاً.

- ١٠ -

شهور الاحتلال طالت حتى بلغت ستة وسبعين شهرا كان فيها تخطيط العمليات قد تم ورسمت خطوط الدوريات والكمائن فى العمق وشفرات اللاسلكى ودعم القوات. وأعلنت التعبئة العامة لمصر وتضاربت الآراء عند كل القادة والسياسيين فى مصر والوطن العربى والعالم كله خاصة الإسرائيليين ولم يتوقع أحدهم أبدا أن مصر قد أعدت كل شىء.

كان عيدهم سعيدا على كل المصريين والعرب ولم تكد الساعة الثانية تدق حتى طارت مقاتلات وقاذفات مصر فى مجموعات تدك كل مواقع الاسرائيليين خطوط الأمداد والمطارات ومراكز القيادة والسيطرة ومواقع الصواريخ والمدفعية والدبابات كلها فى وقت واحد وبعدها ست ساعات فقط كان المصريون قد احتلوا مواقعهم على الضفة الشرقية للقناة. واتسعت رؤوس الكبارى واندفعت القوات المصرية لتستولى على كل النقط القوية وتأسر الاسرائيليين وتجمع الغنائم والأسلحة على طول القناة وفوجئ المجتمع الدولى بالنصر العظيم.

فصل

زلزلت حرب أكتوبر كل موازين القوى العسكرية على المستوى العالمى ، وافقدت الإسرائيليين توازنهم العسكرى والسياسى.فى المقابل كان العرب والمصريون فى جميع انحاء العالم مشدوهين بالنصر العظيم الذى شطب مجد إسرائيل فى عملياتها العسكرية فى عامى ١٩٥٦ ، ١٩٦٧، وتحطمت أسطورة الجيش الذى لا يقهر وهزمه الجيش المصرى بالفعل خلال ساعات وقبل أن يؤذن لصلاة المغرب فى السادس من أكتوبرفى حرب أعد لها بعناية فائقة ودراسة جادة وتدريب لم

يتوقف سنــوات ست كانت غاية فى القسوة والصلابة.وبات الجميع يعيدون حساباتهم على كافة المستويات بما فيهم رؤساء الدول والحكومات ، فقد كانت الحرب ناجحة بكل المقاييس وسوف يظلون عاكفين يحللون عناصرها فى معاهدهم العسكرية.

قدر أن يتم النصر فى تاريخ مصر والأمة العربية ، فى عهد أنور السادات الرئيس المصرى الذى لم تفرغ حقيبته بعد ، فقد كان يعد لأبعد من ذلك.

وقف السادات نجمــا ساطعا تحت الأضواء فى مواجهة عدسات تصوير التليفزيون والسينما وأمامه عشرات الميكروفونات تنقل للعــالم أجمع صورته واقفــا يرد تحية نواب الشعب تحت قبة البرلمان الذى شهد جلسات مجد كثيرة وسط التصفيــق والهتافات المؤيدة بعد إعلان قراره بالذهاب إلى إسرائيــل ليقيم سلام الشجعان.

سياسة الصدمة عشقها السادات بعد أن صدم العالم بنصر أكتوبر ، ثم دفع لهم بصدمة تاليــة وهــو رافع الرأس أعلن أنه سيروح إليهم فىعقر دارهم . وبقوة عارضه كثيرون من حكام العرب وقليل من أبناء شعبه إلا أن نجمه كان صاعدا فقد كانت غالبية المصريين قد عاصروا أربعة حروب خلال خمسة وعشرين عاما وأدركوا أن الإقتصاد المصرى ربما ينعــدل ميزانه عندما يتخلصون من ميزانية الحرب التى تبتلع كل عناصر التنمية الإقتصادية ، بل وتجرف معها ميزانيات الصحــة والتعليــم ومقومات البنية الأساسية للدولة.

صدمة السادات الثالثة التى لم يفق منها الكثيــرون ، كانت بإتمام إتفاقيــة السلام مع إسرائيل . وعده بعض العرب خائنا للقضية ، والآخرون تحفظوا ، وقليل وافقوه وكان ذلك نصيبه أيضا من رضا شعبه وبدا من امتعض متململا من خطوات السلام مع الأعداء وعلت أصواتهم عندما بدأت الخطوات للتطبيع الدبلوماسى والتجارى والثقافى والسياحى.

* * *

– ١١ –

ذات مساء دق جرس التليفون فى منــزل العقيــد ممــدوح ليســتدعونه إلــى الرئاســة فــى مهمة عاجلة فقد اختاروه عضوا فى لجنــة تطبيــع العلاقــات مــع اســرائيل وكانــت لجنــة الأمــن والاتصالات من نصيبه فإنه يجيد اللغة العبرية وتعامــل بهــا طــوال مــدة خدمتــه وعينــوه بصــفة مبدئية فى وظيفة المستشار لرئيس اللجنة.

فى مطار بين جوريون كــان المستشــار ممــدوح واقفــاً ينتظــر أن ينتهــى منــدوب وزارة الدفاع الاسرائيلية من اجــراءات الجــوازات، وكانــت عينــاه تــدوران فاحصــة المكــان والنــاس واستطاع أن يدرك بسرعة الفارق بين حركــة النـــاس هنــا وهنــاك فــى مطــار القــاهرة فابتســم

واقفاً. من الآن عليه أن يتذكر أنه المستشار ممدوح ويـــدع رتبتـــه الســـابقة جانبـــا وأن تظـــل كـــل خبرته متيقظة لكل ما يدور.

رتب الاسرائيليون جولات قالوا أنهـــا ســـياحية وصـــحبوا الوفـــد المصـــرى للتعـــرف علـــى المناطق والآثار وعينا المستشار ممدوح كأنهـــا الكـــاميرا تصـــور وتســـجل فـــيهم ويخطـــط لنفســـه كيف يفاوض هؤلاء الخائفين لحد الموت.

كولونيل دانى كان يـــلازم المستشـــار ممـــدوح ويقـــدم لـــه الطعـــام ويطلـــب مـــن عـــازفى الموسيقى الحانا مصرية اكراما له وملاطفا يقـــدم زوجتـــه إليـــه فهـــى تعمـــل فـــى نفـــس الفنـــدق واسمها مادلين راقصة الفندق الأولى واستبقت يده فى يدها كثيراً عنـــدما رحبـــت بـــه هامســـة فـــى دفء مثير واستمرت تحاول.

على مائدة المفاوضات عرضت مواقـــف وحلـــول وآراء ومصـــاعب وطـــرق التغلـــب علـــى كل ذلك وتقاربت المفاهيم وكان لابد أن توافق الرئاسات والـــوزارات علـــى نقطـــة البدايـــة. رئـــيس الوفد المصرى أعطى موافقة للمستشار ممدوح وطلب منـــه ارســـال مســـودة الاتفـــاق إلـــى مصـــر. وكان لابد كى يتم ذلك أن يكون عبر أجهزة جيش الدفاع الاسرائيلى من خلال مقر الشفرة.

الكولونيل دانى كانت مهمته أن يصحب المستشار ممـــدوح وفـــى الطريـــق اســـتاذنه أن يمـــر علـــى زوجته مادلين فى الفندق. وكانت محاولة ســـاذجة لتوريطـــه معهـــا وعنـــدما لـــم يســـتجب معتـــذر بضيق الوقت وأهمية المشوار، ضغط دانى دواســـة البنـــزين بقـــوة لتنـــدفع الســـيارة فـــى طريـــق هايركون كورنيش تل أبيب على البحر حتـــى وصـــلوا إلـــى المنطقـــة العســـكرية ووقـــف بالســـيارة تحت شجرة كبيرة أمام المبنـــى الضـــخم ولـــم يتـــرك فرصـــة للمستشـــار ممـــدوح أن يبـــدى رأيـــا واختطف المظروف وانطلق داخلا المبنى وحبس المستشار ممدوح أنفاسه غيظاً.

لماذا أصر دانى أن يدخل وحده فى المهمة المشـــتركة وتصـــرف بجليطـــة واضـــحة وربمـــا كانت هذه تعليماتهم إليه.

انطلق المستشار ممدوح هو الآخر ليعبر الطريـــق ويصـــعد بضـــع درجـــات قبـــل أن يفـــتح الباب الزجاجى ويدخل إلى مقر الشفرة لوزارة الدفاع الاسرائيلية.

رفع المستشار ممدوح يده بالتحية وخطا واثقا فى اتجـــاه الســـلم ليقابـــل العـــاملين كلهـــم بالـــداخل وقد تركوا مكاتبهم متجهين للمطعم فقد كانت الثانية ظهرا تماما ينظرون إليه ويؤدون التحية للرجل الأشيب الوقور وقد ظنوه منهم ويسيرون دون أن يهتموا وكان دخوله سهلاً يسيراً.

اختار المستشار ممدوح أن يصعد إلى الدور العلــوى بالهــام ذاتــى معتمــدا علـــى تخمينـــه الشخصى باحثا عن دانى يفتح الأبواب ويغلقها ويهز رأســه بالتحيــة حتــى فــتح البــاب الأوســط فـــى الروهـــه الكبيـــرة ودخـــل ليفاجـــأ أن المكـــان هـــو القاعـــة الرئيســية للشــفرة والكمبيــوتر والمظروف على احدى المناضد أمامه ودانى غير موجــود. لقــد كــان هنـــا بالفعــل وقــد ترجمــت الوثيقة وأرسلت بالفعل وعلى جوارهما نسخة أخرى منها. أين دانـــى ..؟ ربمـــا كـــان فـــى الحمـــام اذن فليأخذ المستشار ممدوح كل الأوراق وينصرف كما دخل تماما.

أفراد طاقم الأمن على الباب هبوا وقوفا عندما اقتــرب مـــنهم المستشـــار ممـــدوح ورفعـــوا أيـــديهم بالتحية وهو يغمغم "عيرف طوق" مساء الخيـــر بالعبريـــة وســـألهم بالإنجليزيـــة ألـــم يظهـــر بعـــد كولونيل دانى فهزوا رؤوسهم نفيا وهم يبتسمون.

اندفع كلونيل دانى مذعورا خارجاً من المبنى وعبـــر مهـــرولا فـــى اتجـــاه الســـيارة وكـــان المستشار ممدوح جالسا يتمعن فى الأوراق وعندما رفع بصـــره رأى دانـــى واقفـــاً مشـــدوها فـــاغرا فمه كالابله يحاول أن يستجمع الكلمـــات، ثـــم انطلـــق ليســـأل قبـــل أن يفـــتح البـــاب كيـــف ومتـــى وبهدوء رد عليه لقد دخلت لأحصل على هذه النســـخة مـــن الاتفـــاق فوجـــدت أنـــك تركـــت الأوراق أمام الجهاز وذهبت بعيدا ثم مد يده إلى دانى قائلا أرجو أن تقبل هـــذه النســـخة هديـــة منـــى لعلـــك تذكرنى بعدما أعود إلى القاهرة.

ـــ فصل ـــ

كانت الإحتفالات بثورة ٢٣ يوليو قد توارت فى فكر المصريين ، وأصبحت الإحتفالات تعنى عيد النصر فى السادس من أكتوبر يقيمونها فى شارع واسع بمدينة نصر اسموه طريق النصر، وأقاموا شماله نصبا تذكاريا للجندى المجهول أمام منصة القيـــادة جنوب الطريق العريض.

مرعلى النصرالكبيـــر سبع سنوات وبضعة شهورعندما بـــدا عام ١٩٨١ مختلفا عن السنوات السابقة وكانت التيارات السياسية والإقتصادية والإجتماعية متضاربة أومتعارضة إلى حد ما ،ونشطت عناصرتطالب بتعديل المسار خاصة بعد ثورة التصحيح ، حتى كان يوم الإحتفال فى السادس من أكتوبر وكانت كل القوات المسلحة رفعت إستعدادها للإحتفال الكبير الذى بدأ فى العاشرة صباحا بينما الطائرات المقاتلة والقاذفة تحوم حول المنطقة وعناصر الهيلوكبتر تقوم بإبرار قوات من الصاعقة ، وأخرى تسقط جنود المظلات فى عرض رائع فى إستعراض للمهارة والقوة يجرى كل سنة ، وتوالت فقرات الإحتفال وكبارالقادة ورجال الدولةوالسلك الدبلوماسى وسفراء الدول العربية والأجنبية كلهم يحيطون بالرئيس الواثق الباسم وهو يرد على تحية قادة الوحدات المتقدمة على طريق النصر شرقا.

لحظات توقفت فيها الأنفاس ودقات القلوب وظلت العيون وعدسات التصوير مفتوحة مع أفواه اطلقت آهات الحسرة أو الإندهاش وتوقف الكل عن الإحتفال لتجرى حوادث تتالت فى إيقاع لم يتوقع على الإطلاق.

ملايين الشعب المصرى فتحوا أجهزة التليفزيون ليشاهدوا ابناءهم فى إستعراضهم الكبير ورئيسهم المحبوب فى بدلة القائد الأعلى وعليها النياشين والأوسمة والتى يحب أن يرتديها فى المناسبات الوطنية.

وكما كان السادات يهـوى سياسة الصدمة ، فإنــه كان هناك من يشاركه نفس السياسة ولكن بطريقة مختلفة. اوقفوا جرار المدفع أمام المنصة فى مواجهة الرئيس وترجل ثلاثة يحميهم رابعهم من فوق ، يطلقون من بنادقهم رصاصات فى إتجاه المنصة ويلقون قنابل هجومية يتيحون لأنفسهم الفرصة للإقتراب .

الكل مذهول ممـا يرى بما فيهـم الرئيس نفسه. ولما دوت الطلقات والإنفجارات انبطح الحاضرون كلهم على الأرض يتفادون الرصاص المنهمر الذى اصــاب البعض بجراح . رجال الأمن بادروا المجرمين واطلقوا عليهم الرصاص فأصابوا إثنين منهم وهرب الثالث والرابع تقدم إلى الرئيس قاصدا إياه وأفرغ باقى ذخيرته ليصيبه ، بينما كانت عقارب الساعة تشير إلى الثانية عشرة والنصف ظهرا.

حرس الرئيس أحاطوا به ونقلوه خلال عشرة دقائق إلى الهيلوكبترالتى طارت فورا إلى مستشفــىالمعادى العسكرى الواقعة جنوب غرب المنصة تسعة كيلومترات لتصلها فى الدقيقة العشرين بعد الساعة الواحدة ظهرا.

صدم العالم كله والعرب وقبلهم المصريون فى الرجــل الذىكان نصيبه الحرب والسلام ، وأعاد جزءا كبيرا من سيناء إلى مصر بدبلوماسية هادئة رائعة موفرا أنهار الدم والجهد والمال والسلام لأجيال تالية. بعدها أخذوا يعددون مآثر ومحاسن الرئيس الذى قتلوه وسط ابنائه من رجال الجيش.

نكست الأعلام وارتفعت رايات سوداء وارتدى البعض أربطة العنق السوداء وملابس الحداد ، وبكت مصر شهيدا رائعا دفنوه على مسافة اربعين مترا من مكان مقتله إلى جوار قبر الجندى المجهول تحت النصب الضخم فى طريق النصر.

***

البداية من هايد بارك

عند ناصية الشارع وقفت سيارة صغيرة بها شاب يجلس أمام عجلة القيادة، والآخر يقف بجواره على الرصيف يتبادلان الحديث ضاحكين، ويجذب واحد منهما الآخر ليخطف منه سلسلة المفاتيح أو علبة السجائر. كان من يراهما لا يشك لحظة أن أحدهما قد اختلس السيارة من أبيه أو أخيه ليمرح بها قليلا، والآخر بدا خفيف الظل كثير الحركة، وكأن الاثنين ينتظران صديقا ثالثا تأخر عليهما.

لم يطل الوقت كثيرا، فسرعان ما إنتبه الشابان للسيارة البيضاء التى كانت أمام المنزل رقم ستة وثلاثين. لقد وصل الهدف بعد طول الانتظار، ولابد أنه كان نائما يستعد لسهرة الليلة. لم يفطن الرجل الهدف أنه مراقب، وأدار السيارة هادئا لتسخن، وفتح المسجل ووضع شريطا لأغنية جديدة واهتز طربا لدقات الطبلة ثم سار لا يلوى على شئ.

مضت السيارة البيضاء فى الطريق تتبعها العربة الأخرى التى كانت على الناصية. انقلبت ملامح الشابين واتخذت شكل الاهتمام والجدية بينما أحدهما ينادى فى جهاز اللاسلكى ويعطى بيانات لتلتقطه سيارة أخرى فى التقاطع القادم حتى لا يفطن الرجل إلى أنه مراقب.

تبادل الهدف على طول الطريق من مصر الجديدة حتى شارع الهرم أربع سيارات اختلفت أشكالها وألوانها وراكبوها الذين كانوا يؤدون مهمة المراقبة بيسر حتى إستلمه قائد السيارة الرابعة بعد نفق الجيزة.

ليلة الجمعة وصالة الملهى حافلة بالرواد، كلهم ينشدون المرح والمتعة فيأكلون ويشربون على أنغام الديسكو أو الموسيقى الشرقية بينما الراقصة تتمايل فى دلال وخفة. وقد سكر بعض الموجودين وتعالت الأصوات تطالب بالمزيد. إنضم إلى الرجل الهدف صديق ملامحه الأجنبية واضحة تماما. كان شكله يوحى بأنه من شمال أوروبا. وبدا أنهما متفاهمان تماما وسرعان ماشتركا فى الضجيج الموسيقى الراقص بينما المشروبات والمأكولات تتوالى على المنضدة أمامهما.

الأمور فى صالة الملهى استقرت تماما، وملامح الناس كانت توحى بالانسجام والمرح، والمطربون والمطربات يتوالون على الرواد فى تناسق جعل الليلة بهيجة، حتى كانت الثانية والنصف بعد منتصف

الليل عندما صعد نجم الفكاهة لتصاحبه عاصفة من التصفيق، والضحك عقب كلماته السريعة وقفشاته اللذيذة فى ضوء الخافت.

المظروف صغير مستطيل الشكل انتقل من جيب الرجل الهدف إلى يده ثم تحت المنضدة يستلمه الرجل الآخر الذى احتسى كثيرا من الخمر وتناول كمية مضاعفة من الطعام ورغم ذلك مازال واعيا. كلمات قصيرة بينهم بعدها تمت عملية التسليم وقبل أن تنسحب الأيدى من أسفل المنضدة كان أربعة من ضباط المخابرات فى ملابسهم المدنية يحيطون بهم بعد أن جذبوا الكراسى ليجلسوا معهم وأربعة آخرون على مقربة فى وضع الترقب والحماية ثم قام كل هؤلاء يتسربون إلى الخارج أولهم الرجل الهدف بيد ضابطين لم يرهقهما السهر الطويل.

كانت السيارة تسير فى شوارع القاهرة متجهة من شارع الهرم إلى جهاز المخابرات بعد أن عصبوا عينى الرجل الهدف وزميله. واتخذت السيارات تشكيلها فى السير لحماية أنفسهم والغنيمة التى حصلوا عليها، فإن الفرصة لا تتكرر كثيرا وانطلقوا جميعا بينما كان الزملاء على طول الطريق يسبقونهم وتفتح إشارات المرور نورها الأخضر ليمر الركب السريع لا يسبقه راكبو الموتوسيكلات ولا آلات التنبيه، فقط تمرق السيارات كالأسهم الخاطفة فى ليل القاهرة المتلألئ البهيج.

بينما كانت الأمور تجرى هادئة فى ملهى شارع الهرم، كانت مجموعة أخرى من ضباط المخابرات ينتظرونهم لتفتيش شقة الهدف، وعثروا على جهاز لاسلكى ودفتر شفرة داخل كتاب، وحبر سرى ومجموعة من الرسائل وردت إليه بالبريد، ونوتة بها ملاحظات وكلها كانت مخبأة بطريقة بارعة. كان باقى المجموعة فى إدارة الجهاز ينتظرون زملاءهم ومعهم صيدهم الثمين وعلى رأسهم السيد علاء الدين. هجم ضباط المخابرات على السيد علاء الدين يحتضنونه فى فرح واحتفال يهنئون أنفسهم بنجاح العملية بينما قهقهات الرجال تطغى على ضحكات علاء الدين الوقورة.

سياسة علاء الدين كانت الصدمة. لابد أن يصدم خصمه بقوة ليفيق ويدرك أن حجم مشكلته كبير للغاية وأنه أمام ضابط مخابرات عريق ماكر لن يخدع أو يلين.

كانت هذه العملية التى استغرقت نهايتها ساعات قليلة هى شغل علاء الدين الشاغل لسنتين وأربعة شهور كاملة تابع فيها سلامة داخل وخارج مصر ورصد كل تحركاته واتصالاته حتى استطاع إحكام الخطة وأن يوقع بشبكة جاسوسية يتزعمها فى الداخل وعناصر أجنبية أخرى هم رجلان وسيدتان فى قبرص وإيطاليا وكلهم فى فلك الموساد الإسرائيلى.

لماذا إذن هذا المشوار الطويل؟ ذكريات العمر القصير تتداعى واحدة بعد الأخرى كلما جلس هنا على المقعد الخشبى قبيل المغرب، والسحب إما أن تكون حبلى بالمطر داكنة تحجب الضوء أو تساقط عليه الرذاذ استعدادا لتدفق ماء المطر كما فعلت كل ليلة طوال الشهر الماضى. كان علاء الدين ينتهى من سيره الطويل كل يوم ليجلس قليلا فى حديقة الهايد بارك بلندن يلتقط الأنفاس ويسترسل مستعرضا حياته كيف سارت.

كان دائما يصاحب علاء الدين صديقه مأمون الذى يعمل بمكتب الملحق التجارى والذى لم يفارقه منذ وصل من القاهرة لإجراء العملية. الآن لا يتركه أبدا إلا للعمل ثم يعود فيصاحبه فى جولاته الرياضية القصيرة التى تنتهى فىالطريق إلى مسكنه ليطمئن عليه.

لم تكن الصداقة التى جمعت علاء الدين مع مأمون جديدة، بل بدأت عقب تخرج علاء الدين عندما قابله فى نادى الضباط بالزمالك، فقد كان والد مأمون ضابطا كبيرا بالقوات البحرية وسرعان ما جمعتهما الهوايات المشتركة، وكانا يمارسان معا السباحة ورفع الأثقال فى صالة الألعاب. مضت بهما الأيام حتى تفرقا سنوات. سافر فيها مأمون إلى سفارات مصر فى أنحاء العالم متنقلا بينها إلى أن استقر فى لندن ليكون من حظه أن يرافق علاء الدين فى محنته.

عندما تخرج علاء الدين فى الكلية الحربية فى أول الستينات كان أمله أن يلتحق بوحدات الدبابات، فقد كان يراها قوة الصدم والردع وتطوير المعارك، علاوة على أنه كان يهوى إدارة النيران وهندسة المحركات، فتحقق له ما أراد. فى مدرسة المدرعات وجد ضالته فقد كانت هناك المدافع والمحركات والمعلمين والأساتذة وتعلم منهم الفنون وزادوها بفن القتال وعند التخرج كان الرابع على دفعته وحقق الامتياز فى علوم التكتيك والمدفعية والميكانيكا.

كان يوما من أصعب أيام الملازم علاء وأجملها عندما تسلم الفصيلة السادسة فى الكتيبة. أحس أنه المسئول عن الدبابات الثلاث وأطقمها، ولابد أنه سوف يعلمهم ما اكتسبه فى الكلية الحربية ومدرسة المدرعات. المقدم نور قائد الكتيبة والرائد صلاح رئيس العمليات استقبلوه مع أربعة ضباط آخرين من دفعته أطلق عليهم القائد لقب الضباط المستجدين ولم يعجبه ذلك فى البداية ، ولكن عندما أمر لهم بالشاى كان مبتسما، وزالت تقطيبة الوجه وحل مكانها ملامح أخرى اكتشف فيما بعد أنها كانت تعبر عن الأخوة ورفقة السلاح رغم جهامتها مرة أخرى عندما كان يستلم الطابور كل صباح.

كان قد مر عام كامل انطلق فيه الملازم علاء الدين يدرب جنوده على أعمال القتال متحمسا صائحا فيهم دائما نحن لسنا هواة بل محترفون للحرب، وسيكون لنا فيها شأن عظيم. فى الاحتفال بنهاية العام التدريبى كان للملازم علاء الدين وفصيلته المركز الأول فى اللواء المدرع فاحتضنه جنوده بشدة وصيحات الفرح تنطلق، بينما كان الزملاء ينظرون إليه بإعجاب. بعد الاحتفال بأيام ثلاثة استدعاه المقدم نور وسلمه مبتسما خطاب النقل إلى كتيبة استطلاع الفرقة وكادت الأرض تميد بالملازم علاء لما وجد أن مكافأته هى النقل السريع قبل أن يرقى للرتبة التالية، ثم فهم بعد ذلك أن أكفأ العناصر يختارونها للخدمة بوحدات الاستطلاع.

لم يكن نقل علاء الدين إلى كتيبة الاستطلاع سهلا على نفسه، فقد افتقد زملاءه وجنوده. لكن سرعان ما وجد فى وحدته الجديدة زملاء جددا يتطلعون إليه ليكتشفوا ضابطهم الجديد. كانت المنافسة بين عناصر كتيبة الاستطلاع مختلفة عن كتيبة الدبابات حيث تغيرت طبيعة العمل والمهام والمهارات المطلوب تنميتها. فتباينت عناصر المنافسة ثم اشتدت مع اقتراب موعد المسابقة السنوية. الملازم سامى لم يغفل مهارة زميله علاء الدين أبدا، بل كان يقدر مستواه العالى ويلاحظ قدراته المختلفة. لذا فإن المنافسة خلال المسابقة السنوية لوحدات الاستطلاع للفرقة انحصرت بينهما فى موضوعات كثيرة. كان أحدهما يتفوق مرة ليلحق به الثانى وعندما انتهت المسابقة وقبل إعلان نتائج وحدات استطلاع الفرقة كان علاء الدين وسامى صديقين تماما وامتدت علاقتهما خارج الوحدة وتزاورا فى منزليهما ليبدأ بينهما التعارف العائلى الذى شمل الأسرتين وامتدت العلاقة بعد ذلك وتشعبت كثيرا.

نبيلة هذه الفتاة الرقيقة، أخت الملازم سامى فى الكتيبة. لقد أعجبته وحاول كثيرا الاقتراب، وهم لم يمانعوا أبدا، بل كانوا يرونه مناسبا لها وأحس بذلك فبدأ يتحرج من زيارتهم ولكنه لم يستطيع أن يمتنع

فكلما حاول وجد نفسه منساقا إليهم ليراها ويختلق الموضوعات والمشاوير حتى تصاحبهما وكانت النهاية الطبيعية. لقد تزوجها وأنجب منها محمد وسارة.

أربعة أعوام تالية مرت واصبح الملازم علاء الدين نقيبا قائدا لسرية كاملة يبث فيها من روحه وفنه ، يعدهم لقتال قريب وكلما انتهت سنة، تخرج دفعة من المجندين إلى الرديف ويرسلون له مجموعة أخرى ليبدأ معها من جديد، ولم ينس أبدا فكان يداوم الاطلاع وحضور الدورات التعليمية لفن القتال حتى يكون على اتصال دائم بالتطورات الجديدة. النقيب علاء وجد نفسه منساقا بحكم عمله فى وحدات الاستطلاع أن يقرأ المعلومات المتاحة عن العدو الإسرائيلى ، ووحداته وتوزيع عناصره على الجبهات
وموضوعات تدريبه، وكلما انتهى من كتاب أتى بغيره حتى وصل إلى مكتبة السلاح وأصبح يلتهم الكتب كل ليلة يبحث فيها حتى امتلأت رأسه بالإسرائيليين وتنظيماتهم وأفعالهم وحياتهم عسكريين ومدنيين.
كل ذلك كان يسير متوازيا مع تدريبه لوحدته ولنفسه فأحس بالتميز والقوة، وأجاد فوقها اللغة العبرية كباقى ضباط الاستطلاع واستمر يحصل مع ضباطه وسريته على المراكز الأولى كلما أقيمت مسابقة أو مناورة أو مباراة حربية وعرفه الجميع أنه من أكفأ ضباط الاستطلاع.

نبيلة دائما كانت تغار من كل شئ وأولها اهتمامه بالعمل فكانت لا تطيق غيابه المستمر، وكلما عاد كانت تحتفل بوصوله ثم تلقى بنفسها بين ذراعيه وتبكى الفراق الذى كان ، ولا يستطيع أبدا أن يحقق راحة بالها وتكون ساعاته فى البيت أكثر.

النقيب علاء الدين مطلوب للحضور إلى إدارة المخابرات الساعة العاشرة من صباح السبت أول يوليو.
كان ذلك باختصار ما بلغه له الرائد سعودى الذى كانت مناورته بالأمس. اليوم هو الأول من يوليو وباقى على الموعد ساعة ونصف ولا بد أن يتحرك إلى هناك ، ولكن لماذا يطلبونه بالذات؟ فى الإدارة تجمع مع عدد آخر من الضباط وآخرين فى صالة للسينما وقابلوهم فى تحفظ ملحوظ فجلسوا صامتين ينتظرون. قال المسئول لقد اختاركم الجيش كأفضل عناصر الشباب للخدمة فى وحداته، ولما رأينا ذلك وتحققنا منه اخترناكم لندربكم معنا على أعمال المخابرات ثم يكون الاختيار. من ينجح ينضم إلينا ويكون فردا منا ، ومن لا يحقق المستوى المطلوب سيعود إلى وحدته وكأنه فى مأمورية عادية، وأطمئنكم أن الدفعات الثلاث الأخيرة قبلكم انضموا جميعا إلينا فقد أجدنا اختيارهم. ابتسم علاء الدين عندما ابتسم المسئول وسرت همهمة بين الجميع.

محمد وسارة..كان يأمل عندما يكبران أن تنتهى متاعبهما مع المدرسة والزملاء، ولكن كل سن وله متاعبة. عندما كانوا أطفالا رآهم كثيرى الحركة مشاغبين لا يملان الأسئلة أبدا، وكان دائما يجيب ليصطدم بأسئلة أخرى ويضحك وتمضى الأيام ليكبر الأطفال.

كما توهج الملازم علاء الدين عندما كان قائدها لفصيلة الدبابات ثم الاستطلاع، استمر متوهجا كضباط للمخابرات وأشاد به الجميع واعتمدوا عليه وكان نصيبه أن يخدم فى قسم تجنيد العملاء، وهكذا استغرق يدرس هذا الفن ويمارسه ليلا ونهارا حتى أجاده، وأصبح هوايته الدائمة ممارسة العمل بإتقان وكلفه ذلك الكثير من الجهد والوقت والسجائر، فكان يدخن كثيرا كلما استغرق فى العمل بعد أن ابتعد عن الصفوف وممارسة الجرى ومباريات كرة القدم، ورغم أنه كان يزور صالة الألعاب مرتين أسبوعيا إلا أن ذلك لم يكن كافيا. بمرور الأيام قلت زياراته لصالة الألعاب وزادت سجائره حتى أصبحت جزءا من ملامحه لا يرونه أبدا بغيرها.

علاء الدين أصبح المحور فى قسم مقاومة التجسس بعد أن كان فى قسم تجنيد العملاء. الكل يعتمد عليه والرئيس لا يدعه يغيب لحظة. ربما كان يعده لعمل عظيم، والكل أحس ذلك ولم يحسدوه، فكلهم متميزون ناجحون يعاونون بعضهم دائما. عمليات علاء الدين كانت دائما ناجحة شكل فيها مجموعاته كاملة تعمل فى تناغم مضبوط فى الدول المختلفة يشتغلون فى مهن عديدة ويجمعون المعلومات بطرقهم ويرشحون الآخرين للعمل، وكل ذلك لخدمة متخذ القرار، والكل يعرف علاء الدين ويعمل له ألف حساب، فإنه لا تفوته شاردة ولا واردة، منتبه دائما للأشياء والحوادث ويستدعى من ذاكرته كل ما يريد ثم يعطى القرار والأمر المحكم والرأى السديد وهكذا خطا واثقا فى طريق النجاح.

بعد المشوار الطويل امتلك أول سيارة فى حياته، اشترها لزوجته نبيلة بالتقسيط من المؤسسة الاقتصادية، وساعتها لم تسعه الدنيا وسافر بها إلى قريته البعيدة وإلى الإسكندرية ونبيلة والأطفال سعداء. إنهم معا دائما بعد أن تعودوا جميعا على السفر المفاجئ وحضوره القصير وانتظمت حياتهم على هذا الترتيب أما هو فكان لديه سيارة خاصة من الجهاز لتحركاته وتنقلاته.

سنوات مرت ومجموعات علاء تواصل نجاحها وترسل تقاريرها المنتظمة ويسافر إليهم يجتمع بهم ويخطط ما يراه تدعيما للعمل، ويختبر عناصر جديدة يرشحها الزملاء، تبدأ للعمل معهم. يجهزهم ويدربهم ويختبرهم ثم يعودون إلى موقعهم فى إضافة جديدة لنجاحات الجهاز الكبير.

أربعة كليومترات من الجرى كانت فى المرة الأولى والثانية. فى الأسبوع الثانى سبعة كليومترات أعقبتها راحة لمدة ساعتين ثم انتظموا التدريب. كل يوم فى الصباح ساعتان للتمارين الرياضية. الآن تسعة كليومترات ويسمونها"الدورة القصيرة" ولم تعد تنقطع الأنفاس أو تكل السيقان بل أصبح الجميع يتسابقون أيهم يصل فى المجموعة الأولى ثم من يصل أولا ليحتل المركز الأول.

بعد أربعة أسابيع تقرر أن تكون مسافة الجرى إثنى عشر كيلو كاملة، ولم يعد يحس بالإرهاق فقد أصبح الجرى كالمشى تماما بعد أن بلغت عضلات السيقان المدى فى قوة الاحتمال. الجميع يستعدون للقفز بالمظلات بعد أن أنهوا التدريب الأساسى والأرضى والتعرف على المظلات، وكيفية العمل والأمان، وكيف تستقبل سيقانهم الأرض عند أول لمسة حتى يكونوا قادرين على القتال بعد وصولهم مباشرة.
كانت أيام إلتهم فيها من الطعام كميات يعوض بها المجهود الكبير أحس فيها بالقوة والرشاقة والحيوية، وكان القلب قويا فى صلابة الحديد قادرا على المجهود والحب والعطاء.

عندما أفاق علاء الدين وجد نفسه فى المستشفى وقد أوصلوا له أنبوبة الأكسجين وجهازا آخر متصلا بأسلاك فوق صدره، وفوقه خيمة من البلاستيك الشفاف لتمنع تسرب الغاز. فهم أنه تعرض لأزمة قلبية وبدأت رحلات العلاج ومنعوه من التدخين والمجهود والانفعالات، ثم أضافوا نظاما قاسيا للطعام فحرموه من كل شئ إلا القليل لتنزلق دمعة من عينيه، فقد أحس أنه أسير للفراش ولن يستطيع ممارسة هوايته لفترة قادمة.

قال الطبيب أن هذه الإصابة يحكمها عوامل الوراثة الطبيعية والعادات الغذائية والتدخين، ويأتى فى النهاية عامل الإجهاد، وأنه يرى أن إصابة علاء الدين كانت نتيجة الإفراط فى المجهود لفترات طويلة مع التدخين بمعدل عال، وهذا ما يحدث بالفعل فإنه كان لا يتحمل أن يترك العمل أبدا قبل أن ينهيه بصورة يرضى عنها، وإن أدى ذلك أن يستمر أسبوعا متواصلا ليلا ونهارا إذا استدعى الأمر ذلك، وقد لاحظ بالفعل أن معدل سجائره زاد كثيرا عن العام الماضى.

الحياة لم تتوقف أبدا، والقافلة تسير وأعمال القسم كأحسن ما تكون، وعلاء الدين يسمع التقارير من الزملاء متحسرا لأنه لا يستطيع المشاركة حتى ولو برأى. إن مساعديه يتخذون القرار السليم بالفعل، فقد دربهم، ثم عودهم دائما ألا ينتظروا قراره، وأن يتخذوا قرارهم وينفذوه ثم يبلغوه بعد ذلك. كان العمل عندما لا يكون موجودا يمضى بصورة جيدة تماما فرأى أنهم نجحوا بالفعل، ونجح أن جعلهم على هذا المستوى الرفيع.

مجموعات عديدة من التحاليل والفحوصات ورسم القلب بالمجهود وبدونه، علاوة على صور الأشعة والرنين المغناطيسى الجديد، وإجازة طويلة بالمنزل تردد فيها على المستشفى ثم على القسم بإدارة المخابرات. يقابلونه جميعا بالترحاب والاشتياق ثم ينصرفون بسرعة لأعمالهم فيعود إلى منزله مكتئبا لأنه انفصل عن الزملاء. ساءت حالة علاء الدين فقرروا سفره، والطبيب المصرى فى لندن متخصص ويجب أن يجرى له الجراحة، وقد آن الأوان ليصبح قلب الأسد جريحا مرتين. الأولى عندما حبسوه بالمنزل والثانية عندما قرروا إجراء الجراحة وسافر إلى هناك بسرعة.

لابد أن يخطط من الآن لعمل آخر يمارسه بعد التقاعد. بعض الزملاء حصلوا على شهادات كلية التجارة أو الحقوق أو الآداب، يمارسون بها عملا تكميلا حتى السن الحقيقية للمعاش فى الستين أو بعدها، عندما يشغلون وظائف حكومية أو فى الشركات. الآخرون يدخلون مجال التجارة وهو لم يحب هذا العمل أبدا من قبل. ربما اشترى وباع سيارة ولكن ذلك لا يؤهله لأن يكون تاجرا سيارات يوما.

الجراحة التى أجريت له كانت ناجحة، وهنأه الجميع فاستعد للعودة للوطن متحفزا لأن ينضم إلى الفريق. لكن كانت المفاجآت فى الانتظار فقد ألحقه جهاز المخابرات بالسفارة المصرية فى لندن لمدة ستة شهور بعد أن تقررت جراحة جديدة لم يكن يعلم أنها ستتم، فغمره الإحباط وأحس أنه اصبح فى حكم المستغنى عنه وأنهم يكافئونه بالعمل فى السفارة هذه الفترة بدلا من معاودة السفر وحتى يكون تحت إشراف الطبيب باستمرار.

عند اختياره لما كان فى رتبة النقيب كان أهم ما يميزه لياقته البدنية والصحية العالية حتى أنه كان يبارى الزملاء ويغلبهم فى لعبات كثيرة يستعرض فيها مهاراته وقدراته ويسبقهم متفوقا وكان ذلك

يرضيه ويجعلهم يرشحونه باستمرار للوظائف الأعلى والمهام الأصعب. الآن ذلك راح وأصبح ذكريات وحكايات وبطولات سيتحدث عنها للأولاد والأحفاد والأصدقاء عندما سيتقاعد.

الكل هنا فدائى. لا أحد يحمل الرتب سوى المعلمين. تنازلتم باختياركم عن رتبكم لتحضروا التدريب ثلاثة أشهر كاملة. اكتسبوا المهارات الأساسية فى الشهر الأول. فى الشهر الثانى تعلموا فنون الدوريات، وأكلوا الثعابين والفئران، وتمرسوا على الاعتماد على النفس وتحمل الظروف الصعبة والمفاجآت. بعد الشهر الثالث من التدريب القاسى استحقوا أن يحملوا شارة الصاعقة يتيهون بها فخرا أمام الزملاء ويتحدون المستحيل أن يقهروه.

نصف ساعة يوميا يسير فيها داخل حديقة الهايدبارك بمشيته العسكرية الهادئة. ثم يسرع الخطى وينتظم السير أو يزيد المسافة متدرجا فى النشاط. هكذا ارتفعت لياقة علاء الدين البدنية والصحية وأقلع عن التدخين وبدأ يمارس العمل الإداري فى السفارة، يتعجل الجراحة التالية متخوفا، ففقد الكثير من وزنه وظهرت عليه علامات الإجهاد، وظهرت فى رأسه شعيرات بيضاء تكاثرت بسرعة.

مرة أخرى حديقة الهايد بارك يعاود السير لمدة ثلاثين دقيقة يطيلها يوما بعد الآخر ليكمل الساعة سيرا على الأقدام، ويتزايد فيها المجهود تدريجيا حتى يعود إلى المستوى الطبيعى، فأدمن السير كل يوم فى دروب الحديقة منفردا بأفكاره يتساءل عن الأيام القادمة. ماذا سيفعل فيها وفى عمله الإدارى بالسفارة؟ كيف يمكن أن ينضم إلى رفاق السلاح بإدارة المخابرات بعد أن تعب القلب من الهموم والجراحات..؟ وهل سيستطيع أن يتحمل الإجهاد ثانية..؟

قراءة الخريطة والسير فى الصحراء والجبال ومعرفة النجوم كل ذلك أصبح من المهارات الأساسية، يكفيه بوصلة وخريطة ليصل إلى الهدف. دائما الهدف فى قلب إسرائيل. إذن فيجب أن يتعلموا العبرية أيضا، ودخل المدرسة من جديد يتذكر حروف اللغة التى تعلمها فى الكلية الحربية وأجادوها كأبناء اليهود حتى يستطيعوا التعامل معهم عندما يسقطونهم خلف الخطوط فى الدوريات إياها.

كانت أمسية سخيفة أعقبت المطر الكثيف الذى ظل يهطل طوال بعد الظهر حتى حل المساء. حضر مأمون ضاحكا يزف البشرى لعلاء الدين أن حركة التنقلات قد صدرت فى وزارة الخارجية المصرية وأنه قد حل عليه الدور ليعود إلى الوطن ثلاثة أعوام كاملة يستطيع فيها إعادة ترتيب حياته وأن يتصل بالأصدقاء والأقارب وأن يعيش كباقى المصريين فى وطنه وبيته. قال مأمون إن أكثر ما يفكر فيه الآن كيف سيقضى وقته فى لندن واقترح عليه أن يقدمه لأصدقاء آخرين تعرف عليهم فى الفترة الماضية. علاء الدين هز رأسه فى استسلام فلم تكن طريقة قضاء الوقت تشغله، بل كان يفكر بعمق كيف ستكون حالته الصحية وكيف يمكنه الاحتفاظ بمكانه فى جهاز المخابرات، وسافر مأمون ليبقى وحيدا يسير فى حديقة الهايد بارك محاولا استعادة لياقته.

هذه السيدة الصغيرة تجاوره فى السير ثم تتجاوزه مبتعدة، أصبحت تحييه كل يوم بعد أن جمعهما السير فى الحديقة. لاحظ أن لكنتها ليست إنجليزية، وأنها تلتزم بالموعد اليومى دائما، وتسير فى نشاط ورشاقة، وتخصه كل يوم بتحية أو نظرة، فابتسم لها وبش فإنها تؤنس وحدته هذه الساعة يراقبها وغيرها.

قبل الغروب فى ذلك اليوم اقتربت السيدة وحيته مبتسمة وتبادلا الحديث بعد أن سارا معا. قالت كلاما كثيرا ، لم يكن أبدا لينزلق فى مغامرة من هذا النوع. فلم تكن العلاقات الخاصة هدفه يوما، وهى أيضا لم تكن ترمى إلى هذا رغم الشورت الساخن والقميص المفتوح فى خريف لندن البارد.

أنا " نتالى" من فرنسا. يبدو أنك من الشرق الأوسط. أليس ذلك مثيرا. من أى بلد أنت ؟ هذا بلد عظيم أود أن أزوره مرة. هل تستطيع أن تتيح لى الفرصة؟ جدك رمسيس أم خوفو، هل من المحتمل أن يكون سيزوستريس. كان حديث السيدة جذابا امتص وحدة علاء الدين فوعدها باللقاء فى اليوم التالى.

عندما تقابلا دعته لتناول مشروب بارد فى المقهى المجاور. هناك أعلنت له أنها تعمل مراسلة لمكتب خاص يهتم بأخبار الشرق الأوسط وتتقاضى مرتبا محترما. قالت إنها يمكنها أن تتيح له الفرصة مع هذا المكتب ليحصل على أجر كبير هو الآخر وابتسم علاء.

البداية دائما تكون هكذا خاصة مع القادمين الجدد والصغار السذج. كلمات بسيطة تفتح باب الأمل فى كسب بعض المال والاستقرار عندما يبدأون غربتهم لأول مرة. لم تكن هذه المواقف فى الحسبان لديه أبدا، بل كان باستمرار يخطط كيف يكون فعالا وأن تكون أعماله مؤثرة مخفية ورائعة فى نفس الوقت.

أنا أدرس التاريخ الإنجليزى بالجامعة، وأعمل طوال الوقت، فأجمع الأخبار من كل مكان، وليس لدى إلا هذه النزهة اليومية أقابلك فيها. إياك أن تمتنع عنه فأفتقدك.. أوه.. أدعوك لشراب بارد ثانية. هذه المرة عندى فى البيت. لا يذهب فكرك بعيدا. أنا لست من هذا النوع. كنت أسكن مع شخص أسبانى له مزاج غريب، فجعلته يترك الحجرة، أعيش فيها بمفردى الآن. يمكننا أن نسكن معا وبذلك ستوفر أجرة السكن. لابد أنك تدفع لهم مبلغا كبيرا كل شهر. من يدفع تكاليف العلاج؟ لابد أن السفارة المصرية تتكفل بها؟ ابتسم علاء الدين فقد كشفت عن نفسها هذه الجميلة عندما ألقت بالطعم الساذج إلى الثعلب الكبير وهذه يعتبرها غلطة مهنية جسيمة.

قالت ناتالى يبدو أنى ثرثارة كبيرة، لقد تحدثت كثيرا وأنت تستمع فقط، لم تكلمنى حتى الآن. من أنت؟

– أنا علاء الدين ضابط فى جيش مصر من المدرعات وقد أصابنى المرض فى قلبى وأجريت عملية جراحية كبيرة هنا.

ـ زوجتى وأولادى ينتظرون عودتى إلى القاهرة. الأولاد مازالوا صغارا. محمد عمره عشر سنوات وسارة ثمان سنوات مازالا فى التعليم الابتدائى. زوجتى لا تعمل، إنها تحب إدارة المنزل وتجيد الأعمال والمشغولات فى التريكو والكنافاه والسيرما.

ــ ليس لى ثروة خاصة، مجرد حساب صغير فى البنك يحولون إليه مرتبى ليمكن لزوجتى أن تسحب منه عندما تحتاج.

ــ لى أصدقاء كثيرون فى الجيش وبالطبع لى أصدقاء مدنيين.

ــ لا أستطيع أن أتحدث عن خبرتى العسكرية ويكفى أن أقول أنى اشتركت فى عمليات القوات المسلحة منذ تخرجى وقضيت كل خدمتى فى جبهة القتال الشرقية مع إسرائيل، وكنت أستعد للدراسات العليا العسكرية فى كلية أركان الحرب.

ــ أخى الأصغر رائد فى الجوازات بمطار القاهرة وسوف يستقبلنى فى صالة كبار الزوار كما يفعل مع أقربائنا والأصدقاء. ذلك يسهل الإجراءات، وغالبا ما يجعلنا نخرج بسرعة من المطار، ربما دون تفتيش، أو يكتفون بالتفتيش الظاهرى على الحقائب. إنه ذو حيثية كبيرة هناك ويحبونه بالفعل.

ــ زوج أختى يعمل فى رئاسة مجلس الوزراء، ويمثل مركزا هاما فى السكرتارية المركزية.

استغرقت محاولات ناتالى قرابة أسبوعين لتحصل على هذه المعلومات من علاء الدين الذى كان بخيلا للغاية، فكان يعطيها فى كل مقابلة معلومة واحدة ربما لا تكون كاملة، ليثير فيها حب الاستطلاع، ولكى تحس بمدى نجاحها فى استدراجه للحديث عن نفسه لتكتشف خباياه ونقط الضعف التى تدخل إليه منها والتى كانت تبتعد عن الجنس والمخدرات بسبب حالته الصحية وتقترب من الإغراء المالى والضغط النفسى.

كانت دائما تستمع بكل اهتمام لحديث علاء الدين، لترسم ملامح وجهها موحية بأنها تصدق كل ما يقوله، وتعلق عليه بما يرضيه، وتضع كفها فوق يديه وهو يتحدث تقويه وتحمسه، لكى يسترسل ويفيض، وقد فعل ما أرادت ونظر إليها وابتسم، فظننت أنه هكذا استراح عندما وجد صديقا يبوح له بمكنونات نفسه.

لابد أن يوم سعدك قد حل الآن. هذا "ريمون" صاحب مكتب التراسل. اجلس معنا. هاهو السيد علاء الدين المصرى الذى حدثتك عنه. ما الذى تستطيع أن تعاوننا فيه يا علاء؟ وأى الموضوعات تفضل الكتابة فيها. إننا نهتم بالشرق الأوسط وخاصة مصر. كل شئ. وأى شئ عنها. الناس يتشوقون لقراءة شئ عن بلدكم حتى ولو كان حادث سيارة أو حريق أو اكتشاف علمى عادى. إننا نقدر المجهود بالفعل. ننتظر أن تكتب معنا. وابتسم السيد علاء الدين.

عشرة شهور كاملة مرت، وقد أجريت لعلاء الدين جراحتان فى القلب، شقوا فيها صدره ونشروا العظام وأخرجوا قلبه فوق المنضدة وفتشوه جيدا، فماذا وجدوا فيه؟

يحتاج للقلب العطوف وإلى لمسة حانية. يفتقد الأهل والصحاب والأهم الزملاء. الزمن يمر والناس تنسى بسهولة ومكالمات التليفون السهلة من السفارة تبرد بعض الشوق. لكن إلى متى؟ المجهول الجديد يقفز أمامه كل يوم فى شورت قصير مثير، وحكايات جديدة، وخيط يحاولون أن يربطوه به، فلم يفهموا ابتساماته المتكررة. إلى هذا الحد انحدرت به الحال. لقد كان يفعلها إنها مهنته!!!

هل يبدو عليه العبط والسذاجة إلى هذا الحد؟ إنهم لا يعلمون من هو علاء الدين الذى زرع فى بلادهم وقلوبهم العملاء والوجع الطويل؟ هل جرأوا أن يقتربوا إلى هذا الحد المثير؟ كيف؟ كيف يطلبون معلومات عن الموقف فى مصر؟

لما عاد علاء الدين بذاكرته إلى مقابلات ناتالى الأولى وجد أن لابد لها من التعرف على كل من هو فى مجالها وتقوم بفرزهم فى مهن ومجموعات مقسمة تمهيدا لترشيح الصالح منهم للتعامل معه وقد اجتازت معه هذه المرحلة ببساطة، ولو كان مكانها لفعل نفس الشئ، ويبدو أنهم دخلوا للمرحلة الثالثة وهى الاختيار وقد صمموا أن ينهوا الموقف واختاروا الضغط النفسى ليقبل التعامل معهم.

رغم الوحدة القاسية والحالة الصحية التى يعنيها علاء الدين فإن عقله كان متيقظا طول الوقت لما تفعله ناتالى. رد الفعل الطبيعى لديه كان أن اتصل بالسيد صفوت مسئول المخابرات المصرية فى لندن ليحدد موعدا فى نفس الليلة. لم تكن المقابلة عادية بينهما فقد انصبت تماما على المعلومات التى قدمها علاء الدين وتوقعه لعناصر من الموساد أحاطت به لتجنده، وكان الأمر الفورى بالانتظار وعدم اللقاء مع ناتالى أو ريمون حتى تصل تعليمات القاهرة.

لم يمض سوى أيام ثلاثة حتى أبلغه صفوت تعليمات القاهرة أن يستجيب بحذر لتجنيده، وأن يظل صفوت على علم بكل ما يحدث أولا بأول، وابتسما معا فقد بدأت عملية جديدة.

جلس علاء الدين وجذب جريدة الأهرام. اختار المقال الرئيسى وأكمل بفقرة من مجلة روزاليوسف وجريدة الوفد، ثم انتظر للصباح وسلم ما كتبه لناتالى التى قدمت إليه مائة جنيه استرلينى فى اليوم التالى. ابتسم علاء الدين عندما طلبت منه أن يستمر، ناتالى سلمته مائتين من الجنيهات للمقابلة التالية واتسعت ابتسامة ناتالى وعلاء الدين وعندما سلمهم المقالة الثالثة فى نهاية الأسبوع سلموه ثلاثمائة

جنيه كاملة وابتسم علاء الدين وناتالى وريمون فقد حضر هذه المقابلة وفى كل مرة كان علاء الدين يعرف أنهم يسجلون المقابلات بكاميرا الفيديو من السيارة التى تقف على الجانب الآخر من الطريق.

كيف تنتهى هذه اللعبة؟ إنهم يدفعون مقابل قصاصات الورق المنقولة من الصحف المصرية. من المؤكد أنهم غير متوهمين. بل هم مدربين جيدا على ما يفعلون. يريدونه أن يتورط، واللعب بحذر مطلوب ولكن ما الهدف النهائى؟ كفى.. إنه لن يقدم المزيد.

أين أنت مستر علاء الدين؟ أبحث عنك منذ أسبوع فلا أجدك لا فى السفارة ولا الفندق؟ أين كتاباتك الرائعة وآراؤك؟ لقد بهرت الناس بها ويطلبون المزيد. ناتالى تقلصت ابتسامتها وظهرت عليها ملامح الجد واقتربت تهمس.

"ماذا هناك مستر علاء الدين ؟ ألست راضيا عما نفعل؟ إننا نعرف كل شئ عنك ونريد أن نساعدك. أنت تعرف ذلك جيدا منذ البداية. الآن نتصارح. ماذا تخطط للمستقبل؟ سوف نبعدك عن كل المشاكل هنا أو فى القاهرة، ولن يعرف أحد ماذا يدور. أنت خارج دائرة الاشتباه ولن تكون أبدا فيها.

أنت مكسب كبير لنا وسوف ندفع بسخاء ونعوضك عن كل ما مر بك خلال الفترة الصعبة. سنهتم بأسرتك ومدخراتك. سوف يكون لك هنا شركة كبيرة باسمك فى لندن. أنت لا تتخيل المجد الذى سوف تصل إليه عندما نتعاون سويا أنت تعرف أيضا أنه لا يمكنك الانسحاب. فقد عملنا سويا لفترة لا تنس أننا تقابلنا مرات عديدة فى الحديقة. تحدثنا كثيرا ونكمل العمل هنا فى المقهى أو فى مكتب"ريمون".

لقد سجل كل ذلك، تعرف أننا نريد أى شئ وكل شئ، والأمر لا يحتاج للتفكير. قرارك لابد أن يكون جاهزا فى هذه اللحظة، وتقلصت الابتسامات من على وجه علاء الدين وريمون وناتالى قالت ننتظرك فى العاشرة صباح الغد.

بدا لناتالى وريمون أن علاء الدين استسلم عندما حضر فى الموعد تماما متفتحا يريد التعاون بعدما استعرضوا قدراتهم على تجنيده، فقد حصلوا على مقالات له عن الوضع فى مصر واستلم منهم نقودا،

وقابلهم مرات عديدة فى الحديقة والحانة والبيوت، ولم يبق سوى أن يدخل إلى عمق دائرة الموساد بقدميه، والآن جاء.

كان لابد من اختبارات يجرونها قبل أن يبدأوا تدريبه. طلب منه ريمون أسماء العاملين فى السفارة المصرية. كان لابد أن يستجيب فهو ملحق على السفارة ويتردد عليها أربع مرات على الأقل أسبوعيا. صفوت أعطى علاء الدين كشفا كاملا بأسماء البعثة الدبلوماسية المصرية فقد كان فى وزارة الخارجية الإنجليزية صورة منه بالفعل.

المهم أن علاء الدين أتى بها بعد ثلاثة أيام كما لو كان سرقها من أحد الملفات، بعدها طلب ريمون أرقام السيارات وعناوين الموظفين ومواعيد سفرهم إلى القاهرة. فى كل مرة علاء الدين يتجاوب بسرعة مدروسة مع صفوت حتى وثق ريمون فى أداء علاء الدين وقرروا البدء مع عميلهم الجديد.

إمعانا فى إجادة العمل اضطر علاء الدين أن يتقمص دورا جديدا لم يخطر على باله، فقد بدأ صفوت يدربه هو الآخر أن يكون خائفا مرتعبا لحد الموت من فكرة القبض عليه فى مصر ثم يعدموه رميا بالرصاص لخيانته الوطن. ظل علاء الدين واقفا أمام المرآة يستدعى ملامحه أثناء الانفعالات ليتلبسها عندما ينزلق الحديث نحو المخاطرة واحتمالات اكتشاف ما يقوم به فى القاهرة، حتى بات يحلم أنهم يسوقونه إلى ميدان الرماية لينفذوا حكم الإعدام أمام صفوف القوات المسلحة، ثم يستيقظ من الكابوس فيحمد الله أنه مازال حيا وأنه لن يخون مصر أبدا، أنهم يشجعون ويهونون عليه فإن تدريبه عال للغاية ولا يمكن لأحد على الإطلاق اكتشاف نشاطه علاوة على الثروة التى سوف يرسلونها إليه بالتقسيط عقب كل عملية يقوم بها أو معلومات يسلمها.

استمر التدريب على جهاز اللاسلكى أسبوعا كامل،ا وعشرة أيام أخرى لاستخدام الشفرة وحلها عند سماعها، وطرق التخلص عند الطوارئ من الأدوات والأوراق والأحبار، وجعلوه يحفظ ثلاثة عناوين فى أوروبا يرسل عليها مكاتباته، واستوعب فى ذاكرته توقيتات الإرسال باللاسلكى نهارا وليلا ووعدهم أن يرسل لهم من القاهرة والإسكندرية ومن عمق الدلتا والصعيد، لاختبار كفاءة عمل الجهاز واستسلم علاء الدين وتركهم يلتقطون له أفلاما كثيرة بالكاميرا العادية والفيديو ليضمنوا أنهم يستطيعون تهديده

والوصول إليه حتى انتهت مدة التدريب مع انتهاء فترة العلاج والنقاهة، حتى استعاد كل لياقته الصحية والبدنية والنفسية وأصبح جاهزا للدفع إلى القاهرة ليبدأ العمل.

وثق ريمون إلى حد المقامرة أن علاء الدين سوف يخترق كل نطاقات الأمن، وسوف يرسل لهم كل المعلومات التى سيحتاجونها فى العمليات القادمة. إن ذكاءه المتوهج يؤهله بالفعل لأن يكون العميل رقم واحد لهم فى مصر.

هكذا دفعوا بعلاء الدين لبدء عمله ويختبرونه بالفعل فى أداء المهام التى كلف بها ودرب على تنفيذها. فى مطار هيثرو وقف علاء الدين مرتديا معطفه الأسود ومعه بعض الزملاء من السفارة المصرية. لم يكن بينهم صفوت فقد ودعه فى المساء عندما كانا يراجعان معا سير الأمور ويحمله رسائل شفوية أخرى للزملاء فى جهاز المخابرات. أيضا كان هناك فى وداعه ريمون وناتالى يوصيانه ألا يغفل عن حمولته الثمينة من الأدوات وجهاز اللاسلكى، بينما يطمئنهم أن أخاه سيستقبله فى المطار بقاعة كبار الزوار فقد اتصل به بالأمس وتأكد من ذلك علاوة على أنه خبأ الأدوات فى الحقائب بطريقته الذكية. ارتفعت أيدى علاء الدين وزملائه، والأخرى التى دربته على أعمال الجاسوسية لريمون وناتالى وكلها تشير بالوداع ولقاء قريب.

سعادة ضباط الموساد كانت بالغة. فقد بدأت رسائل علاء الدين تصل بانتظام تحمل معلومات طلبوها عن الطرق العسكرية الجديدة إلى السويس والإسماعيلية، ومعلومات عن حمولات وصلت موانى السويس والإسكندرية. بعدها أرسل لهم أسماء بعض القادة المصريين الذين تم تعيينهم حديثا فى مناصب هامة. استمر فى إرسال تقاريره على العناوين الثلاثة التى حفظها بجدول كانوا قد أعدوه، وجهاز اللاسلكى على وضع الاستقبال فى التوقيتات التى حددوها، يستقبل عليه طلباتهم ليلبيها فى مواعيدها المطلوبة تماما، فأثار إعجابهم وجعلهم يضاعفون راتبه الذى يصل باستمرار على حسابه الجديد فى بنك بالقاهرة.

استمر نجم علاء الدين يعلو عند الموساد فأسندوا إليه عمليات التقاط المعلومات من عملائهم الآخرين فى نقط المقابلة حيث يحضرون ويلقون حمولتهم الصغيرة فى حوض الزهور إلى جوار صندوق قمامة على الرصيف وسرعان ماالتقطتهم مجموعة علاء الدين وتابعتهم حتى نهايتهم ليوضعوا فى الانتظار إلى حين.

ظلت العمليات فى اتجاه علاء الدين لفترة سنتين وسبعة شهور كاملة استطاع علاء الدين وزملاؤه رصد خمسة من العملاء يتعاملون مع الموساد بطريقة الرسائل المتروكة تحت سيطرة علاء الدين. أيضا أمكن رصد العناوين فى أوروبا ومراقبة العناصر هناك.

كانت فترة الواحد وثلاثين شهرا كافية بعدها أصدرت المخابرات المصرية أمرها بالقبض على الجميع فى وقت واحد. ويرسل علاء الدين تقريره الأخير للموساد الإسرائيلى شكرا على الطريقة المصرية، فى رسالة مفتوحة عبر الجهاز اللاسلكى والذى رفع الهوائى الخاص به فوق مبنى المخابرات والتقط الموساد الإسرائيلى الرسالة كاملة ولم يعلق عليها أبدا.

مجموعة العمل التى كان يقودها علاء الدين استراحت جميعها فقد كانت باستمرار تعمل على تجهيز المعلومات التى يطلبها الموساد، وكانوا يجيدون صياغاتها وإحكامها، فيصدق الإسرائيليون أن علاء الدين قد رصد الأشخاص وتحركات الوحدات والتسليح الجديد، وأيضا خرائط المواقع والوحدات التى كانت ترسل. كان كل ذلك داعيا للفخر بأبناء مصر الذين استطاعوا الخداع طوال هذه المدة لجذب اهتمام الإسرائيليين بعيدا عن مسرح العمليات الحقيقى فكان بعدها نصر أكتوبر عام ألف وتسعمائة وثلاثة وسبعين.

* * *

فى قلب إسرائيل النابض

كان المستشار عبد الرحيم صبرى واقفا فى مطار بن جوريون فى انتظار أن ينتهى مندوب وزارة الدفاع الإسرائيلية من إجراءات الجوازات. كانت عيناه تدور فاحصة المكان والناس. يرصد ويخزن فى عقله ما يراه، واستطاع بسرعة أن يدرك الفارق بين حركة الناس هنا وهناك فى مطار القاهرة.. فابتسم واثقا. كذلك فى الفندق كانوا قد خصصوا جناحا للوفد المصرى ووضعوا عليه الحراسة، ووفروا له الحماية أينما تحركوا أو استقروا. بالطبع كان ذلك يشمل المراقبة الدائمة الدقيقة يحاولون رصد كل شئ، حتى خيل إليه يجمعون بقايا السجائر والأكواب ليرفعوا عنها البصمات ليسجلوها عندهم، ثم وجد كاميرات وميكروفونات للمراقبة والتصنت مزروعة حولهم، ويكادون يفتشونهم كل يوم عبر البوابات الإلكترونية على مداخل الفندق والبنايات الأخرى التى يذهبون إليها.

***

عندما بدأت المباحثات، قالوا إنهم لا يريدون إلا العيش فى سلام واطمئنان، وأن العرب لا يكفلون لهم ذلك أبدا، وأنهم طوال الوقت يدافعون عن أنفسهم كل هذه السنوات. قالوا إنهم يتطلعون إلى التطبيع بعد اتفاقية السلام. المستشار عبد الرحيم صبرى لاحظ أنهم رفعوا بعيدا شعارهم من النيل إلى الفرات من الكنيست، بل إنهم ادعوا أنها مقولة العرب عنهم وهكذا رآهم بالفعل أكثر الناس جدلا ومساومة وتضييعا للوقت بعد أن آمنوا أن الوقت سلاح فعال له أهميته فاستغلوه بحرفية كبيرة حتى أنه مضت عليهم كل هذه الأعوام فصنعوا دولة وقتلوا الآلاف حولهم ليناموا فى هدوء وطمأنينة ولم ينجحوا.

عبد الرحيم صبرى كان ضابطا بالقوات المسلحة المصرية، ولأنه متميز ويثق فى نفسه جيدا فقد اختار الالتحاق بالسلك الدبلوماسى وتقدم لاختبارات وزارة الخارجية وكانت معلوماته ولغته وشخصيته الفذة جواز مروره. ثم عمل فى الوظائف بسفارات مصر فى أنحاء العالم حتى ترقى إلى مستشار ثم أصبح عضوا بارزا فى لجنة تطبيع العلاقات مع إسرائيل واختاروه للجنة الأمن والانتقالات لإجادته للغة العبرية مما سهل التفاهم والتفاوض بين الجانبين.

ذاق المستشار عبد الرحيم صبرى ويلات الحرب مرتين فى سنة ستة وخمسين وسنة سبعة وستين، وفى نفسه مرارة من الإسرائيليين لا تزول ولا يتوقع أن ذلك سيحدث حتى بعد أن عرف بعضويته فى هذه اللجنة، وظن أنه لن يقدم الكثير فيها. فى طائرة شركة مصر للطيران المتجهة إلى تل أبيب وفيها أعضاء الوفد المصرى وقد تنازعتهم المشاعر كلها يتخيلون مدى مشقة التفاهم والنجاح مع طرف كان عدوا حتى الأمس القريب ولابد أن يتباحثوا معه، وعبد الرحيم بالذات لبحث الأمن والانتقالات وهو الذى كان موقنا أنه لكى يدخل إسرائيل فعليه أن يمهد لذلك بالقوات الجوية والصواريخ والمدفعية ثم يقتحم حقول الألغام والخنادق ويصد هجومهم المضاد بالقوات المدرعة خفيفة الحركة التى تتحرك تحت ستار أسراب الهليكوبتر المسلحة بصواريخ مضادة للدبابات والأخرى شديدة الانفجار

والتى تستخدم ضد تجمعات الأفراد، فى حرب لا هوادة فيها ولا رحمة حتى يهدأ الشهداء فى قبورهم. لقد فعل الإسرائيليون كل ذلك سيناء والجولان والضفة الغربية وجنوب لبنان وما زالوا يفعلون كأنما هو عهد أن يبيدوا الناس حولهم عدا اليهود، وكلما أدانتهم الدول ازدادوا تجبرا وغرورا يعلنون أنهم محصنون فى كل مواقعهم ولن يخترقها إنسان حتى انهارت الأسطورة فى الحرب الأخيرة ولم يكفوا عن دعاواهم وغرورهم.

رتب الإسرائيليون جولات قالوا أنها سياحية، وصحبوا الوفد المصرى للتعرف على المناطق والآثار والمعالم، وكانوا يستعرضون بعد قدراتهم العسكرية قدرتهم على البناء والتشييد وشق الطرق وإقامة الكبارى والمستعمرات ليثبتوا وجودهم على الأرض بكل الطرق وأن اليهود على كل شئ قادرون. كانت المدن والقرى والمستعمرات محصنة ولها خطط دفاعية ظاهرة لكل ذى عينين تثبت أنهم خائفون طوال النهار والليل وأبدا، وأنهم لا ينامون إلا فى قراهم المحصنة. ولا يثقون فى الناس ولا فى أنفسهم رغم أنك قد تراهم معا جميعا يدا واحدة، واكتشف عبد الرحيم أن الناس هناك يتعاملون مع السلطات بالعبرية، وفيما بينهم بكل لغات العالم فتجمعت الجنسيات والقوميات والطوائف منفصلة متصلة، فسمع اللغة الحبشية والهولندية والأسبانية والعربية بكل لهجات الدول وسمع الروسية والإيطالية أيضا ووجد أن قلوبهم شتى بالفعل فقال صدق الله العظيم.

كانت عينا عبد الرحيم كأنها كاميرا آلة التصوير والتسجيل تلتقط فيفهم ويخطط لنفسه كيف يفاوض هؤلاء الخائفين حتى الموت. فى الفندق كان دانى يلازم ويلاصق المستشار عبد الرحيم صبرى، ويقدم له الطعام، وطلب من عازفى الموسيقى أن يعزفوا ألحانا مصرية واقترب ملطفا يستأذنه أن يقدم زوجته إليه فهى تعمل بالفندق وقد وعدها بمصافحة المصرى. مادلين استبقت يد المستشار بين يديها ونظرت طويلا فى عينيه تستعد أن تلقى بكلمات الود والترحيب فى الوقت الذى انسحب فيه دانى بسرعة وتركهما معا. ولم تنجح راقصة الفندق الأولى أن تجذب انتباهه واستمرت تحاول حتى بعد أن فهم أنها ليست زوجة دانى أبدا.

فى جلسته مع مادلين استطاعت الصورة أن تفرض نفسها عندما كانت حربا خاطفة حبس فيها العالم أنفاسه انتظارا للنتائج التى حققتها مصر عام ثلاثة وسبعين والتى بعدها انطلق العرب يمارسون حياتهم بعزة وكرامة ولم تعد نكسة سبعة وستين هى وصمة العار بل اعتبرها الجميع موقعة خاسرة وانتهت وصححت الأوضاع. وهكذا لم تكن حرب ثلاثة وسبعين تحريرا للأرض بل كانت البداية لتصحيح أوضاع ومفاهيم كان لابد أن تتضح معالمها فى فكر العرب والعالم وبصفة خاصة الإسرائيليين.

على مائدة المفاوضات دار الكلام، وعرضت المواقف والحلول والآراء والمصاعب وطرق التغلب عليها. كذلك نقط الاتفاق والخلاف. وتقاربت المفاهيم وكان لابد أن توافق الرئاسات والوزارات فى البلدين على نقاط البدايات.

رئيس الوفد المصرى أعطى موافقته للمستشار عبد الرحيم صبرى وطلب منه إرسال مسودة الاتفاق إلى مصر، وكان لابد أن يكون ذلك عبر أجهزة جيش الدفاع الإسرائيلى من خلال مقر الشفرة. كولونيل دانى كانت مهمته أن يصحب المستشار عبد الرحيم، وفى الفندق كانت محاولة ساذجة لتوريطه مع مادلين. وعندما لم يستجب عبد الرحيم معتذرا بضيق الوقت وأهمية المشوار ضغط دانى على دواسة البنزين بقوة لتندفع السيارة فى طريق هايركون كورنيش تل أبيب على البحر حتى وصلوا إلى المنطقة العسكرية. وقف دانى بسيارته تحت شجرة كبيرة أمام مبنى ضخم ولم يترك فرصة لعبد الرحيم أن يبدى رأيا وانطلق بسرعة عبر الطريق وفى يده المظروف ومر من أمام جنود الحراسة أمام المبنى ودخل من الباب الزجاجى اللامع الذى حجب المنظر بداخل المبنى. وحبس المستشار عبد الرحيم أنفاسه غيظا.

حبس العالم أنفاسه عندما هبطت طائرة الرئيس المصرى على أرض إسرائيل ، ووقف وسطهم هناك فى الكنيسيت مرفوع الرأس شامخا كهرم خوفو. صورته ملأت العيون وصوته ملأ الأسماع والقلوب عندما وقف وتكلم. وكانت الاتفاقيات. ولم يعجب ذلك البعض فى البداية ، وبعد مرور السنين احتاج الأمر إلى وقفة تقييم بعدها قدم المعترضون التقدير والعرفان ولكن بعدما مات الرئيس.

الموقف أصبح له مذاق سخيف، والدقائق تمر بطيئة حرجة، ولماذا أصر دانى أن يدخل لإرسال الرسالة وحده، وتصرف بجليطة واضحة، وربما كانت هذه تعليماتهم إليه.

كرامة المستشار عبد الرحيم صبرى التهبت وزاد ذلك بمرور الدقائق فإن الكولونيل دانى قد تخطى كل حواجز اللياقة عندما تصرف كجلف مغرور وكان لابد من رد مناسب يعيد التوازن للموقف. انطلق عبد الرحيم هو الآخر ليعبر الطريق ويمر أمام جنود الحراسة ثم يصعد بضع درجات قبل أن يفتح الباب الزجاجى ويدخل إلى مقر الشفرة لوزارة الدفاع الإسرائيلية.

على يمين الداخل كان أفراد الأمن الثلاثة، عريف ومجندتان، خلف الحاجز ينظرون إليه فى تساؤل وحيرة، عبرها بسرعة عندما نظر إليهم ورفع يده بالتحية فى تكبر مصطنع قائلا "عيرف طوف" ملقيا عليهم تحية المساء حيث كانت الساعة قد قاربت الثانية بعد الظهر. مظهر المستشار عبد الرحيم صبرى بملابسه المدنية وهيئته العسكرية وشعره الأشيب وخطواته الواثقة ونظرته الحاسمة قطعت التساؤل فجلسوا ثانية ليستأنفوا حديثهم، وربما تساءلوا عمن يكون ثم لم يهتموا.

الردهة طويلة وتتفرع يمينا ويسارا والسلم الرئيسى فى المنتصف، واختار عبد الرحيم أن يصعد إلى الدور الثانى مباشرة، وكان إلهامه ذاتيا معتمدا على تخمينه الشخصى باحثا عن دانى، أين يكون؟ سوف يصعق عندما يراه داخل قلب إسرائيل النابض، وقد دخل عنوة ودار فى كل الأنحاء . واستمر عبد الرحيم يتجول يقابل الضباط والجنود والمجندات فى المكاتب والردهات ويفتح الأبواب ويهز رأسه بالتحية ويغمغم بالكلمات البسيطة التى

تعنى مساء الخير ، ولم يجد من يهتم أن يسأله أو يساعده. استمر فى سيره باحثا عن الكولونيل دانى، وصعد إلى الطابق الثالث وكان الباب الكبير مفتوحا فى مواجهة السلم فاتجه إليه ودخل، وكانت المناجاة..!

كانت القاعة الرئيسية للشفرة والكمبيوتر، وكانت الساعة تجاوزت الثانية والربع بعد الظهر والجميع فى الراحة وقد توجهوا إلى المطعم أو الكافيتيريا. أمام أحد الأجهزة هناك أوراق ومظروف. لقد كان دانى هنا بالفعل وقد ترجمت الوثيقة بالشفرة وطبعت تمهيدا لإرسالها موضوعة إلى جوار الوثيقة والمظروف. إذن دانى قريب من هنا، ربما كان فى الحمام، وامتدت يد المستشار عبد الرحيم صبرى وحصل على ترجمة الوثيقة بالشفرة فطواها ووضعها فى جيبه وخرج مسرعا متجها على السلم لأسفل.

أفراد طاقم الأمن هبوا وقوفا تحية للرجل الأشيب الذى ربما ظنوه أحد قادتهم، المستشار عبد الرحيم صبرى رفع يده متبسطا ردا على تحيتهم ثم قال بالإنجليزية وهو يتجه خارجا "ألم يظهر بعد الكولونيل دانى؟" فهزوا رووسهم نفيا.

اندفع الكولونيل دانى مذعورا خارجا من المبنى وعبر الطريق مهرولا حتى وصل إلى السيارة. كان المستشار عبد الرحيم صبرى جالسا يتمعن فى ورقة الشفرة بهدوء وعندما رفع نظر رأى دانى واقفا مشدوها فاغرا فمه كالأبله يحاول أن يستجمع الكلمات، ثم انطلق يسأل قبل أن يفتح الباب كيف ومتى؟ وبهدوء رد عليه لقد دخلت لأحصل على هذه النسخة من الاتفاق. وقد صعدت للدور الثالث، فوجدت أنك تركت الأوراق أمام الجهاز وذهبت لبعض شأنك. وقد أخذتها للذكرى إن لم تمانع فى ذلك.

استند دانى إلى السيارة ليتمالك نفسه والموقف قائلا ذلك لا يهم. مد المستشار عبد الرحيم يده بالنسخة وأعطاها له قائلا لقد سألت عنك أفراد أمن البوابة. وأرجو أن تقبل هذه النسخة هدية منى لعلك تذكرنى بعدما أعود إلى القاهرة.

* * *

اللعب بالديناميت

مشيرة تلك الفتاة الجميلة التى تذوب رقة ودلالا والتى كان الجميع يداعبها محاولين اكتساب رضاها عنهم بقطعة حلوى أو لعبة صغيرة. فجأة كبرت وأصبحت محور حديث السيدات قبل الرجال، وكل واحدة طامعة أن تكون الجميلة زوجة لابنها، فهى تملك بعد الجمال الحسب والنسب وحب الجميع لها.

عنايات هانم أم مشيرة كانت لا تكاد تستقر مكانها فتبحث فى أرجاء المنزل الكبير تسأل عنها الخدم والسائق ثم تجدها فوق السطح تلاعب نفسها أو تسمع الموسيقى وتغنى فتنهرها لأنها تحركت بعيدا عنها دون إذن ، ثم تضمها فى حنان بالغ تخاف أن تفقدها بعدما مات الأب وتركهما وحيدتين فى هذا الفراغ ولم يعوضهما الأقارب أو الثروة أو الأشياء.

سنوات قليلة مرت وكبرت كل البنات وكبرت أيضا مشيرة التى سكنت فى النادى داخل شورت التنس تتجول به، وفوقه بلوزة ضيقة مفتوحة لتتطلع إليها العيون وتدق القلوب ويتمناها الشباب، وهى مازالت لاهية فى عمرها الصغير لا تدرك تأثيرها على القلوب والعقول والألسنة التى تحوطها.
زينب هانم، الصديقة الأثيرة لعنايات تصب فى أذنيها دائما كلمات الحب والوفاء والنصيحة، وكلها تخوفها على مشيرة التى زادت عن حدها فى الجمال والدلال والعناد والاستقلال بالرأى ولم تتعد بعد سنواتها، وبعد عام أو أكثر قليلا سوف يكون إلى جانبها عريس من الواجب أن يعملوا حسابه من الآن، ولابد أن تلمها إلى جوارها حتى لا يفلت منها زمام الأمور.

زينب هانم كانت مثل كل الأخريات ، تمنت مشيرة لابنها الوحيد علوى الذى ترجو أن تفرح به إلى جوار صديقتها عنايات ، وتحكى أنها لا تحمل هم زواج إخوة علوى البنات، فلابد أن كلا منهن سوف يزورها "خراط البنات" وأن لكل فوله "كيال" وسوف يتزوجن حتما، ولكن علوى البكرى له كل الاهتمام، لذا فإنها ترفع من أسهمه دائما عند عنايات، والأهم عند مشيرة فكلما قابلتها كانت تدعو لها بالستر والعريس المناسب الذى يكون من سعد أمه أن تكون مشيرة زوجة لابنها.. ثم تضحك وتدق على صدرها قائلة: يا سعدى أنا.

فهمى بك زوج السيدة عنايات، ودع الحياة مبكرا بعد أن ترك مشيرة مع الأم ثروة لابأس بها وفيلا كبيرة، وتآكلت الثروة وباعت الفيلا، وانتقلت لتسكن فى العباسية الى جوار إخوتها بعد أن تخلت عن الحى الراقى والنادى والسائق والمصروف الكبير وتضاءلت أحلامها أن تزوج مشيرة لمن يقدر عزها القديم.

كانت الثورة قد قامت، وفرضت الأوضاع الجديدة نفسها على الشعب وظهرت مفاهيم حديثة مع المكاسب الاشتراكية والقطاع العام وحقوق الشعب التى كانت قد تقلصت فى عهد الملكية، وأصبحت الكلمات الجديدة لامعة براقة يتشدق بها الكل مع فرحة الناس بالثورة، فذابت الفوارق بين الطبقات وبرزت كلمات العامل والفلاح ومجلس الأمة وأرباح العمال ومجانية التعليم، ومع عدوان عام ستة وخمسين، زاد تلاحم الجميع بعد أن ذابت الفوارق، وكان كل المجهود لتعبئة الموارد لرد العدوان وتجمع الشعب حول الزعيم، وتكونت مجموعات طبقية جديدة استفادت من الأوضاع وبدأت الملامح تتحدد لفترة طويلة بعد ذلك.

علوى الابن الكبرى لزينب هانم تعلق قلبه بمشيرة، كان يحلم أن تكون فتاته، ثم ود أن يخطبها لنفسه، يخطط أن تكون زوجته ولم ير غيرها مناسبة له، فقد كانت تكبر أمامه وطالما داعبها وأخذها فى نزهات قصيرة. كان ذلك قبل أن تبلغ الرابعة عشرة، ثم عندما كبرا بدأت الأحلام ثم توقفت لما انتقلوا الى العباسية، فزارها مرتين مع أمه، ومرة أخيرة بمفرده ثم فرقتهما الأيام عندما التحق بالكلية الحربية وتخرج بعد سنوات ثلاث ليخدم فى سيناء أعواما تغيرت فيها الدنيا ومفاهيمه ، وبدأت شخصية تتحدد، ووجد نفسه دائما فى العمل.

"علوى ابنى ضابط قد الدنيا" هكذا كانت أمه تفخر دائما على كل من حولها بهذه العبارة، ثم تتواضع وتذكر ابناءهم أيضا، فهم مهندسون وأطباء قد الدنيا أيضا وفيهم المدرسون والعلماء وغيرهم، ثم تبتسم ثانية عندما تتمنى أن تزوجه بمن تستحقه بعد أن باعدت الأيام بينهما وبين عنايات هانم وابنتها مشيرة، وتوارى الحديث عنهما إلى النسيان.

انقطع علوى عن النادى ، وكانت كل إجازاته بالقاهرة يقضيها نهارا فى مأموريات بالإدارة والسلاح، ثم يجتمع مع الزملاء فى نادى الضباط بالزمالك يتداولون أخبارهم ويستعيدون الذكريات وقد يزورون مريضا أو يهنئون آخر بزواج أو مولود.

"إنت فين ياعلوى؟" كان هذا السؤال يوجه إليه دائما من زملائه عندما يرونه بعد طول غياب، ولم يكن يجيب أبدا.كان يبتسم أو يحول الحديث أو يرد بتساؤل جديد ولم يعد أحد يسأله " أين أنت ياعلوى؟ " فقد عرف الجميع أنه لن يجيب وعرفوا أيضا أن الإدارة قد اختارته للخدمة بالمخابرات، فإنهم ينتقون أفضل العناصر وأكثرها إخلاصا. كبر علوى وترقى فى الجهاز وعرف عنه أنه الرجل الصامت الفعال دائما، وكانت المهام الصعبة من نصيبه، وتنقل بين أفرع الجهاز حتى استقر فى قسم مكافحة الجاسوسية يراقب من بعيد.

تزوج علوى من صديقة أخته. كان اسمها ليلى تحملت كل صعاب حياته لاتسأل، ولا تطلب ولا تشكو صابرة، متحملة باسمة. تحملت عبء الأولاد وأحسنت التربية، فكان له منها بنت واحدة وولد واحد، وكأنما الزمان يكرر نفسه، فكبر الولد فى صورة أبيه

وكانت البنت نسخة من أمها إن لم تكن أجمل وهكذا استقرت حياة علوى بين مكتبه وسفرياته وبيته الآمن دائما.

كانت النكسة مفاجأة لكل العالم والعرب، وأولهم شعب مصر، فاهتزت الأرض تحت الأقدام، وكان لابد من تخطيط سريع يعيد التوازن لكل أجهزة الدولة، وشمل ذلك كل شيء. فأفرزت الأحوال الجديدة أنواعا كثيرة من البشر انقسموا بين مؤيد للسياسة والدولة والجيش يحلم بيوم مشرق بعد زوال الكابوس ويعمل جاهدا فى مجاله إعداد لهذا اليوم، ونوع آخر وحيد اضطربت به الأفكار والمبادئ، وجد الدنيا قد أصبحت كئيبة، وأن الهزيمة هى نهاية الحياة ونهاية العالم، ولا قائمة لمصر بعد ذلك، فتحولوا إلى الداخل فى أنفسهم وتقوقعوا يندبون ساخطين أيام كان الملك فيها ملكا والصعاليك ومازالوا، ولن يكونوا غير ذلك. يظنون أنهم لولا الثورة لكانت حالهم غير الحال الذى انحدروا إليه، ويحلمون بزوال الحال فيعودون إلى مجد حلموا به ولم يحققوه أبدا.

الشباب نصف الدولة، انتشروا فى المصالح والحقول والمدارس والجامعات توزعهم القوى العامة على المصالح والوظائف. البعض دخل السوق وكسب فى التجارة والأعمال والآخرون فضلوا أن يسافروا هجرة للعمل فى الخارج ومن هؤلاء الآخرين كان دائما من لا ينجح فى فرص العمل فيحاول مرة أخرى.

وكان هناك من فشلوا فى العمل فى مصر، فسافروا للخارج فلم يوفقوا أيضا، فتحولوا إلى المطاعم يغسلون الأطباق، وإلى محطات البنزين ينظفون السيارات أو يبيعون الجرائد فى الطريق، أو الأعمال الأخرى، خائفين أن يعودوا إلى مصر بلا مال وبلا عمل فيصبحوا أضحوكة للجميع. وبعضهم قرر البقاء للابد فى أى مكان، وهكذا تزوجوا من أجنبيات سعيا وراء لقمة العيش واكتساب الجنسية حتى لا يطاردهم البوليس.

عزيز قرر السفر إلى النمسا بعدما ضاقت به الحال فى شوارع الحلمية، ولم يجد عملا أبدا يرضى بطالب فاشل لم يحصل على الثانوية. التأميم شمل شركات ومصانع كثيرة، ولم يترك حتى مصنع النسيج الصغير الذى آل إلى أبيه من جدة بالميراث. الأب لم يرض على الإطلاق أن يعمل موظفا بالمصنع بعد أن كان مالكا له ، وبعد عامين مات وترك عزيز متعثرا فى دراسته مثقلا بالديون. سمع عزيز أن الفرج يمشى هناك متمهلا فى شوارع أوروبا يبحث عمن يريده. قال الصديق أن الدولارات والفرنكات لا تجد من يأخذها، وتتنزلق إلى الجيوب الخاوية وفرص العمل هناك بالكوم لمن يشاء، وحكى نجاحات للآخرين. قال إنهم جميعا أصدقاؤه وأقاربه، وإدعى الفخر. قال أيضا إن نسبه الجمال هناك عالية، والأخلاق عارية، والفضيلة توارت بعيدا تاركة الفرصة للشباب المصرى المحروم، وهم هناك يحبون المصرين ورجولتهم الفائرة.

بوصلة عزيز الشخصية التى يثق فيها دائما، أشارت إلى النمسا فاستدان ثمن التذاكر وسافر إلى فينا يحلم أنه سيستولى على كل ثرواتها وجميلاتها فى آن واحد. عندما وصل عزيز إنهارت كل الأحلام عند عتبات المطار وذاق الأمرين حتى وصل إلى مقهى

شارع ويزنجوف بالميدان الكبير حيث تجمع المتعطلون من كل الجنسيات، وهناك التقى فى جانب من المقهى بمجموعة من المصريين. تنفس الصعداء أن وجد أحدهم إلى جواره. قال الصديق الجديد إن الكل يعانى البطالة، ويعملون فى أى عمل من أجل قوت اليوم فقط وأنهم يتجمعون دائما ليتبادلوا الحديث والخبرات حول فرص العمل، وقد يساعد البعض الآخرين.

***

دارت الأيام وعزيز جالس فى نفس المقهى يتسول من الزملاء ما يقيم به أوده وبدأ يندم أنه جاء.

اشتغل ثلاثة أيام فى محل للبقالة يرتب البضائع فوق الأرفف فى رحلات لا تنتهى بين المخازن وصالة العرض حتى وقع مغشيا عليه من الإرهاق ، وفصله صاحب العمل بعدما كسر الأشياء التى كان يحملها.

قبل أن يقرر عزيز مواصلة الندم أو الانتحار ، كان قد استطاع أن يجمع حوله بعض المصريين يلقى عليهم النكات والحكايات عن القاهرة ، ويضيف إليها ما يكنه من حقد على النظام والظروف.

البعض حلا له أن يلاعبه ويغريه بتقديم المشروب أو الطعام. عزيز اكتشف أن له صوتا جذابا وقدرة على الحديث وهم يسمعون ويطلبون له ما يريد ، وهكذا كانت وجبته لا تمثل مشكلة كبيرة عندما يجوع.

القدر فتح طاقة كبيرة واسعة لعزيز عندما أشارت إليه أولجا التى كانت تقف على البار تحتسى البيرة. أعجبتها سمرته وعينيه العسليتين وشعره الأسود المجعد ، وإنبهر ببشرتها البيضاء وشعرها الذهبى والعينين صارختى الزرقة. هكذا كانت نصيبه. قالت يثيرنى ابناء الفراعين ، وقدمت له حضنا دافئا وعشاء إعتبره فاخرا ، كما هيأت له سكنا، وأرشدته إلى ناصية شارع قريب من الميدان الكبير ليبيع فيه الجرائد فى الصباح ، واستمر يعيش مع أولجا فى غرفتها ممتنا أنها مدت له العون فى ظروف صعبة كان يظن أنها نهاية العالم. كان عزيز يكسب قليلا فى الصباح ليصرف على شراء البيرة وبعض المأكولات وتكلفت أولجا بكل الباقى، وعرضت عليه أن يتزوجها بعد أن أعجبتها فتوته وحيويته، فقرر الزواج منها وهم سكارى فى المساء، وزفوهما إلى مكتب العقود ثم إلى مسكن وعمل وزوجة تقوم بالصرف على احتياجاتهما.

أصبح المقر الدائم لعزيز هو نفس المقهى الذى شهد لقاءه مع أولجا يتجمع فيه المصريون فى المساء، وتزعم عزيز الحديث. دائما يوجه اللوم للحظ والظروف السيئة فى مصر التى دفعت به إلى أرصفة فيينا ولا يحمل وزر الفشل أبدا. ساخط لائم باستمرار، ولكنه لا يترك المصريين أبدا ويحس بالإيناس إلى جوارهم.

كل شئ له مقابل فى الدنيا. الهجرة يقابلها فقد الأهل والناس والعمل مقابل النقود، وأولجا مقابل فتوته وحيويته وشبابه والجنسية النمساوية. تركت أولجا العمل بعد أن انتفخ بطنها، وقل أداؤها، فقد أصبحت حاملا كنتيجة طبيعية للزواج، وهو ما لم يكن فى حسبانه أبدا. فزاد الحمل عليه مرتين بتعطل أولجا ووصول الطفل، وكان عليه أن يكد أكثر، فهم فى حاجة إلى الطعام وأجرة السكن وأدوية وطعام الطفل، وتبخرت النقود، ثم ضاعت فرصته

عندما استغنى عنه صاحب العمل، فانضم إلى مجموعة المصريين الجالسين حول المناضد فى المقهى، ولم يفكر بالعودة أبدا وإن كان دائم الاتصال بأمه ليطمئن عليها.

شارف عزيز على الأزمة، فأصبح يقترض من زملاء الاغتراب ويكاد ينفجر عندما لا يحصل على المال. كل شيء لابد من تدبير له، ورجال الموساد دبروا كل المواقف ليسقط عزيز بين أيديهم فريسة سهلة. فاستجاب بسرعة لكل ماطلبوه منه . كانت عيونهم عليه منذ البداية، وأعجبهم ذكاؤه ودائرة معارفه من المصريين وشخصيته الجذابة. فقرروا ونفذوا، وكانت أيديهم سخية فى البداية. فتشجع وعمل بحماس فتورط أكثر، ولم يستطع الانسحاب بعدها أبدا. قرر عزيز أن يستمر، فأصبحت أيديهم شحيحة تأخذ أولا ثم تعطى بعض الأجر والباقى مؤجلا على الحساب.

قالوا فى البداية نريد تقريرا عن أحوال المصريين فى فيينا، وتطور إلى طلب معلومات كاملة عنهم . ثم طلبوا أن يرشح لهم من يعمل معهم وأن يرتب اللقاءات والمقابلات، وكان عليه أن يرتب طرق الإيقاع بالبعض، وكان يغيظه أن يفلت منه المصريون عندما يحاول تجنيدهم، وكان يغضب عندما يفرون إلى غير عودة فيلعن الزمن والظروف. لما أصبح عزيز قويا هناك له الكثير من المعارف والأصدقاء، إمتد نشاطه فى أنحاء كثيرة، فكان يسافر إلى المصريين فى أماكن تواجدهم لمزاولة مهنته فى جمع المعلومات وترشيح الأسماء وتوريط البعض معه، ولم يكن يعلم أنه كان مرصودا منذ البداية وأنهم تركوا له الحبل إلى مداه ليصل إلى حيث يريد أن يكون واختار عزيز الطريق ولم يتراجع ولم يفكر فى ذلك أبدا.

كان عزيز يستمع إلى ما يقولون ويسجل الأحاديث والأحلام ومشاكلهم الشخصية والعائلية والمالية، ويدون أسماء أصدقائهم وعناوينهم فى مصر والأهم هو وظائفهم وأين يعملون. مقر عزيز الدائم بالمقهى أصبح بالفعل ملتقى أبناء وادى النيل فى العاصمة النمساوية، واعتبره مكتبا له يحل مشاكلهم فيه ويرشدهم للأعمال وأماكن السكن، ويدبر طرق اللهو والتسلية، والأهم أن يعطيهم من خبرته التى اكتسبها عن طريق أولجا وكيفية الحصول على تصريح إقامة دائم تمهيدا لاكتساب الجنسية ، وقد يرشح إحداهن ويكسب العمولة!!

كان الإسرائيليون يختارون من بين من يقدمهم عزيز من يرونه نافعا لهم مستجيبا صالحا للعمل معهم، ويبدأون معه بعيدا عن عزيز الذى أصبح بالفعل موردا للأنفار تابعا للموساد، يسلم حصيلة معلوماته التى جمعها من المصريين ثم يسلمهم الأفراد أنفسهم بعد ذلك، ويتقاضى أجر كل ذلك بالإضافة إلى ما يحصل عليه من عمله كبائع صحف نهارا عند مفارق الميدان.

إنك لم تعد تعمل كثيرا ، وإذا فعلت فإنك لا تجلب لنا من نريد لابد أن تزيد مجهوداتك . ويظل عزيز مادا يده باستمرار ليستلم أجرته عن خيانته، أو يقدم بها معلومة جديدة تضاف إلى سجل المصريين عندهم، وظن أن الحظ قد استقر مبتسما له فى فيينا.

النمسا ليست فيينا فقط. إنها دولة كبيرة وبها مصانع للأسلحة زارتها مجموعة من المصريين تعاقدت على شراء مدافع جديدة للجيش. كان ذكاء عزيز يقوده باستمرار واستطاع أن يحصل على المعلومة من أحدهم الذى وثق فيه بسرعة، بل أخبره بموعد وصول البعثة المصرية التى أرسلتها مدرسة مدفعية الميدان لحضور دوره على المدفع الجديد المضاد للدبابات، وأبلغ وانتظرهم فى المدينة التى ذهبوا إليها. جلس ينتظر فى مطعم الفندق وفرح الضباط المصريون عندما التقوا بشاب مصرى مكافح فى النمسا، يسعى لكسب رزقه من العمل المتواصل ما بين بيع الصحف ونظافة الأطباق حتى يرفع اسم مصر عاليا وألا يكون عالة عليها، وأنه يرسل دولاراته باستمرار إلى بنوك مصر حتى يسهم فى دعم الاقتصاد ويوفر العملة الصعبة التى تشترى بها المدافع الجديدة المضادة للدبابات. عزيز قال ذلك، وتنهد متحسرا أنه أضاع شبابه فى شوارع النمسا من أجل مصر.

كما أن للموساد مكاتب فى أنحاء العالم تجمع الأخبار والمعلومات لصالح إسرائيل، فإن للمصريين مكاتبهم فى كل دولة ويدعمونها بأفضل العناصر ولم تكن المخابرات المصرية لتترك عزيز يصول ويجول فى النمسا، بائعا لكل مصرى تصافح يده يديه ويتقاضى عنه الثمن. فقط صبروا عليه كثيرا وكان تحت المنظار ليلا ونهارا، يراقبون ويرصدون أفعاله، بل كانوا يرسلون إليه من يراه صيدا سهلا سمينا يتقاضى عنه أجرا محترما.

أحمد وماهر إخوة عزيز فى مصر اتصلوا به فى فيينا يطلبون عودته، فإن أمه تود أن تراه قبل أن تموت. خاف عزيز أن تموت أمه بالفعل دون أن يراها، فقد مات أبوه منذ سنين ولم يره أيضا. كم سنة مرت؟ إثنا عشر عاما!! هكذا مرت بسرعة. سوف أحضر على الفور. لم تكن علاقة عزيز بإخوته محل اعتبار على الإطلاق ولم يكن يراسلهم أو يحادثهم، بل اقتصرت علاقته مع مصر فى مكالمات سريعة مع أمه عبر السنوات حتى نسى الجميع عزيز ما عدا الأم التى كانت تتحدث عنه دائما وتنتظر مكالماته أو عودته لتراه قبل أن تموت، ومع ذلك كان عزيز قد وعد بالحضور.

المقدم علوى رئيس قسم مكافحة الجاسوسية والمسئول عن اتجاه دول أوروبا، كان طوال السنوات الأخيرة بالمرصاد لعزيز ووضعه دائما على قوائم ترقب الوصول فى موانئ ومطارات مصر والدول الأخرى التى يمكن أن تعاون فى هذا المجال، وعزيز لم يفكر على الإطلاق فى العودة إلى مصر ولو فى زيارة خاطفة بعد أن تقطعت العلاقات والأسباب، وبعد أن أصبح له من الأولاد ولد وبنت من أولجا. وكانت له شقة خاصة أخرى يمارس فيها انحرافاته بعيدا عن أعين أولجا والزملاء. يجتذب إليها الصيد الجديد ليقدم له ما يريد ويعرفه على أفراد الموساد، وعلوى تاركه كل الوقت، نافذة يطل منها على فكر وعمل الموساد فى هذا القطاع.

فجأة ركبت عزيز النخوة، فلابد له أن يرى أمه قبل الموت. أولجا فرحت أنها ستزور القاهرة وترى الأهرام التى شاهدتها فى التليفزيون وانطلقت تحدث الأولاد أنهم

سوف يرون جدتهم لأبيهم وأعمامهم والمتحف المصرى وأبو الهول، وعزيز ينتفخ ويتورم متوهما أنه سيكون زعيما للفريق النمساوى فى القاهرة ودليلا يعرفهم بأهله وصور كتب التاريخ، ثم يحسب كم سينفق فى هذه الرحلة، وسمح له زميله من قطاع المخابرات الإسرائيلى فى فيينا أن يسافر إلى القاهرة فى رحلة فإنهم لا يستطيعون العمل بدونه هناك.

فى مطار القاهرة الجديد وقف عزيز مشدوها مما رآه من النظافة والدقة والنظام، وكان الجميع يؤدون أعمالهم فى هدوء، ورأى أولاده وأولجا منبهرين بما حولهم، ولم يلاحظ عزيز ما يلفت نظره أبدا أنه تحت سمع وبصر ومراقبة دقيقة من رجال المخابرات، وأن الأمور كلها عادية فاطمأن وتحرك بحرية وإعتقد أن مصر قد نسيته كما نسيها. كان رجال علوى يرقبونه من بعيد ويتتبعونه، وكان علوى يهيئ له من أمره صيدا.

كان قرار علوى أن يترك عزيز حرا إلى آخر مدى يمكن أن يصل إليه ربما اكتشف أن له علاقات أخرى فى القاهرة، وهكذا مر أسبوعان كاملان تمتع فيهما عزيز بكل الحرية، ودار مع أسرته يكتشف الأماكن التى عاش فيها وكيف تغيرت بمرور السنوات وكان دائما يتعجب من أن المصريين مازالوا كما هم طيبين آمنين يعيشون حياتهم فى بساطة ويسر، وابتسم فى حسرة عندما وجد أن باعة الذرة المشوى والتين الشوكى والعرقسوس مازالوا يحتلون نواصى شوارع العباسية والحلمية.

الثانية بعد منتصف ليلة التاسع من نوفمبر كانت ساعة الصفر. حددها علوى للقبض على عزيز، وقوة المراقبة أبلغت بوصوله فى الواحدة والنصف تماما إلى بيت والدته بالحلمية. دخل علوى المنزل ومعه قوة القبض فى هدوء وتسلل حتى وصل باب الشقة، وفتحت الباب خادمة صغيرة خائفة دخلوا خلفها ولم يجدوا سوى الأم العجوز نائمة فى فراشها، وعزيز ليس هناك. أحس المقدم علوى بالإحباط الشديد. إذن.. فعزيز يعرف أنه مراقب وأنهم سيقبضون عليه، لذا فإنه قد أمن تحركاته، إنه ليس سهلا كما تصور

قالت الخادمة الصغيرة بعد أن تمالكت نفسها: " الأستاذ عزيز فوق فى شقة أخوه الأستاذ أحمد.. هوه دايما يبيت عنده" ولم تكن هذه المعلومات قد وصلت إلى المقدم علوى من قبل فأخذ المسافة هو والطاقم إلى الدور الرابع فى ثوان. بعد دقة واحدة على الباب فتح، ووقفت أولجا مشدوهة غير فاهمة لأى شىء، وأطفالها ذوى العيون الزرقاء والشعر الأصفر بملامحهم الأوربية متجمدون من الموقف ينظرون إلى الرجال والسلاح، وتقدم المقدم علوى متوقعا المقاومة، وللعجب، فإن عزيز أصابه الذهول فتجمد فى مكانه واستسلم ببساطة، بينما كانت أولجا لا تكف عن سؤاله عما يحدث، وهو لا يجيب.

سيدة مصرية اندفعت من الداخل خلف زوجها أحمد شقيق عزيز تصرخ من الهول والرعب مصدومة لرؤية رجال اقتحموا بيتها وقبضوا على شقيق زوجها العائد من الغربة وهو وسط أهله، وتولول أن أصابتها المصيبة فى بيتها وتخاف من الفضيحة وسط الجيران.

المقدم علوى توقف نبض قلبه للحظة واحدة وتراءت أمام عينيه أحداث سنوات كثيرة سابقة، واندفع وجيب قلبه يضخ الدم بسرعة إلى كل أطرافه ووجهه . تمالك نفسه والموقف مسيطرا على الرجال وعيناه لا تتحولان عن الجميلة الخائفة التى تولول هلعا وتندب الحظ وتلعن زوار الفجر الذين لا يقدرون حرمات البيوت، صارخة فى وجهه أن يكف الظلم عمهم. لقد كانت مشيرة حبيبة زمان والتى تمناها فى صباه. عرفها على الفور وهى لم تعرفه وسط رجاله نتيجة للذهول، ولكنه تمنى لو أحاطها بذراعية يهدئ من روعها ولكنه لم يفعل، وسحب عزيز من بين أقاربه وأولاده وأولجا البيضاء ذات العينين الزرقاوين والشعر الذهبى، وانطلق نحو الإدارة يحس بالفخر أنه قد أتم المهمة، تداعب فكره خيالات حب قديم مضى منذ ربع قرن من السنين، وابتسم فى وقار عندما وجد رجاله ينظرون إليه متعجبين من صمته الطويل.

* * *

نش فنـــار أبـــو الــــــــدرج

كانت أيام الربيع تنسحب بسرعة لتفسح الطريق للصيف القادم الذى يبدو أنه سيكون حارا، فقد بدأت الحرارة ترتفع بعدما انتهى موسم الخماسين بعواصفه المتربة، وهكذا فإن صعوبة الرحلة إلى السويس قد تزيد. قدر ذلك الشيخ جديع وهو يعد نفسه لمقابلة رئيس قسم شرطة الشط الرائد محيى، هذه المقابلة التى تتسم بالصعوبة دائما، بدءا بالصول عتمان وما أدراك ما عتمان، فكل شئ عنده مؤجل أو مرفوض، أو مقبول بشروط وإمكانيات تضيع الوقت والجهد والمال. يأتى بعد ذلك موافقات أجهزة الأمن على عبور الشيخ جديع لقناة السويس والأشياء التى سيأخذها معه فى سيارته والمبلغ الذى يحمله ويثبت كل ذلك فى طلب التصريح بالعبور.

الشيخ جديع كهل شارف على الخامسة والستين، مهيب الطلعة صغير الجسم دقيق الملامح، مرهوب الجانب فى البر كله، معروف لكل بدو سيناء فى الشمال والجنوب. يكفى أن يسمعوا اسمه أو كلامه حتى يستجيبوا وينتصحوا ويفعلوا ما قال. الحكومة أيضا عملت حسابه دائما فى كل الظروف منذ كان عمره أقل من العشرين، فقد كان أمهر قصاصى الأثر فى كل سيناء ومازال وطالما استعانوا به، وكلهم لجأوا إليه، الحكومة المصرية وقوات حرس الحدود والشرطة وأيام الجيش الإنجليزي، كما احتاجه اليهود عام ستة وخمسين للسيطرة على تحركات البدو، وكان يرفض التعاون معهم دائما. كان الكل يحتاج إلى خبرته ومشورته عندما يتتبعون الأثر أو يقصون الجرة كما يقولون، لم يكن الشيخ جديع بخيلا بخبرته فقدمها للكل، ولكن القليل من أبنائه وأبناء عشيرته هم الذين أحبوا السير فى هذا الطريق ليتعلموا هذا الفن ولكنهم لم يضارعوه على الإطلاق، حتى الزمن لم يؤثر على قوة إبصاره الحادة رغم تقدم عمره فهو لا يزال يرى أدق الأشياء على كل المسافات ويتحدى العربان فى قدراتهم ويفوز دائما بالحب والتقدير والعرفان فيفيض عليهم بخبرته.

البدو حادو البصر والسمع، مبارياتهم وسمرهم فى أعيادهم ولياليهم دائما تدور حول قدراتهم على الاكتشاف البعيد كأجهزة الاستشعار الحديثة، وبرعوا فى ذلك بالسليقة. يضعون آذانهم فوق الأرض فيسمعون أصوات محركات الدبابات والسيارات الخفيفة والثقيلة على مسافة كيلو مترات يحددونها بدقة. يشمون الهواء فيتنبأون بحالة الطقس والسحاب والمطر، وهجرة الطير ومواسم التزاوج بين المخلوقات حولهم. والشيخ جديع كبيرهم ومستشارهم يلقى إليهم بخبراته فتزداد معارفهم وحنكتهم، يمتصون علمه الوافى ويغرسونه فى الأجيال التى تأتى بعدهم، فهى حضارتهم يحافظون عليها وتقاليدهم المقدسة بعد دينهم.

الليلة لابد أن يستعد الشيخ جديع لمقابلة الصول عتمان وهذا أمر لابد أن يحسب حسابه مرات. تذكر أيام كانت طقوس التصريح التى حفظها وحرص على تأديتها دائما منذ عام خمسة وأربعين فى ترتيب ثابت دائما، ولم يتوقع أن يسهل له الصول عتمان هذه

المأمورية أبدا . وتذكر أيام كان يقابله عتمان عابس الوجه مرحبا به فى ود متكلف وقد يسأله عن الصحة والأحوال، وفى كل مرة يذكره بأيام كان يركب الناقة حتى القسم ويبيت إلى جوار المبنى ليلة عبور القناة ثم يتركها لأحد أبنائه ليعود بها، ويركب هو معدية الكوبرى إلى الجانب الآخر من معبر الشط، ثم يقابله ابنه عندما يعود ومعه جملان لحمل البضائع التى اشتراها من سوق الكسارة فى السويس من وكالة الحاج محمود المصرى الذى يتعامل مع مشايخ القبائل وكبار التجار ويسمح بالشراء مؤجلا الدفع كله أو جزءا منه يتم تسديده فى الزيارة القادمة بعد أن يبيعوا البضاعة ويجمعوا أثمانها، ولم يكن الرجل ينسى الوجوه ولا الأسماء ولا كميات البضاعة أو المديونيات التى عليهم، وكان يدونها بسرعة قبل أن تتراكم الطلبات، وكان الجميع أيامها يلتزمون بكلمة الشرف فى البيع والشراء، وأداء الدين والوفاء بالوعد، فاستمرت علاقاتهم وثيقة تتسم بالألفة والود والأمان.

لم تكن هناك أيامها متاعب سوى أن السلطة لم تكن تسمح بعبور الجمال إلى البر الغربى أبدا مهما كانت الأسباب ، ثم حصل الشيخ جديع على سيارة فورد بك أب من الميجور رونالد فى فايد قبل انسحاب الانجليز، وكانت السيارة عاطلة فأخذها وقام بإصلاحها فى السويس ، ومازالت قوية وإن كانت فى حاجة دائما إلى زيارة للميكانيكى كلما عبر غربا حتى لا تخذله فى رحلة العودة.

كان الشيخ جديع يسافر إلى السويس أو وادى النيل مرات ثلاث كل سنة على الأقل، وربما زادت حسب الظروف. ولم يتخلف ولو مرة واحدة عن هذا السفر. هذه السفرية تختلف عن كل السفريات السابقة. فسوف ترافقه فيها صابحة عروسه الجديدة ، ولم يستطع أن يكسر خاطرها ويرفض طلبها، فقد وعدها وعليه أن يفى بوعده، وهو يحب ذلك، ووجدها فرصة مواتية لمصالحة صابحة عندما غضبت من زوجاته الثلاث لما غاروا منها وكادوا لها كثيرا، فكان لابد أن يعوضها عن المضايقات التى تعرضت لها فوعدها بالسفر معه. لم يرافقه أى من أولاده إلى ما بعد المعبر فى كل سفرياته السابقة. كانوا يصاحبونه فقط ليعودوا بالناقة من عند قسم شرطة الشط. والآن لديه السيارة الفورد بيك أب جاهزة لبدء رحلته ليعود محملا بالسكر والشاى والدخان والزيت والدقيق والأرز والبقول وكميات البطاطس والبصل والأهم هو النشوق الذى لا يستغنى عنه أبدا.

زوجاته الأخريات مات منهن ثلاث فاستعاض عنهن بأخريات، ثم تزوج صابحة ابنة الشيخ مهران عروس وادى الراحة وحلم كل الرجال، فنسبها مشرف وعائلتها عريقة، وأمها ولود. وهو بذلك سوف يتفوق على كل الرجال حوله إذا أنجبت له خمسة أولاد آخرين، ويأمل أن يمتد به العمر حتى يبلغوا أشدهم ويراهم رجالا إلى جواره فإن معمرى سيناء معظمهم من قبيلته وتجاوزت أعمارهم المائة والعشرين عاما قبل أن يودعوا الدنيا، وهو لم يصل بعد إلى السبعين والحياة مازالت عريضة أمامه لا يضايقه فيها إلا الإجراءات الطويلة لاستخراج التصريح.

يصيح فيه دائما هذا الرجل العبوس، الختم يا شيخ جديع، ولا يصبر عليه حتى يخرج محفظته الجلدية السمينة ويحل رباطها ويفتحها ويخرج منها الختم المربوط إلى فتله طويلة حتى لا ينساه فى مكان أو يسقط منه.

يمسك الصول بالختم ويتحرك فيجره معه حول مكتبه حتى يبصم الاستمارة اللعينة ثم يبصم عليها بسبابة يده اليمنى كأنما يثبت عليه أنه هو الذى طلب التصريح بنفسه وأنه لن يتراجع عن رغبته فى السفر.

قال الشيخ جديع نحن مصريون مسالمون دائما نعيش على المطر ومياه الآبار فى وديان نزرع فيها الشعير والحنطة والبطيخ نهيم فى الوديان والسفوح نرعى القطعان ونعود فى النهاية التى مضارب القبيلة نمارس حياتنا، ولا نتحرك فى الليل. كان الصول عتمان دائما يحذرنا من تحدى السلطة ليلا أو نهارا فإن ذلك عقوبته معروفة، وعندما كان الإسرائيليون يسيطرون على زمام الأمور فى سيناء فإنهم كانوا ينظرون إلينا فيروننا جميعا نساعد الفدائيين وجنود الصاعقة وخلف الخطوط لينزلوا بهم أكبر الخسائر، وأننا نتستر عليهم ونخيفهم فى ديارنا أو خيامنا وسط الحريم إمعانا فى الوطنية. أما زمان فإن الحال كان يختلف كثيرا عندما كان الانجليز يسيطرون على سيناء وخط القناة، فهم بدورهم كانوا ينظرون إلينا كمجرمين ليس من حقنا أن نطالب بأى شئ ولا حتى العبور إلى الجانب الآخر من القناة لشراء التموين، أو لإيداع مريض بالمستشفى. أمامنا دائما سيناء كلها فى الشمال البحر وحتى الخليج فى الشرق والغرب. محبوسون فى أرضنا كما لو كنا منبوذين أو فى منطقة للحجر الصحى اتسعت فشملت كل الأرض. حكمنا الانجليز واليهود، والمصريون، ونساعدهم أن يحكمونا لتسير حياتنا البسيطة دائما، ويعقدونها لنا حتى تظلم الدنيا أمام أعيننا. كنا عندما تشتد المقاومة المصرية ضد الإسرائيليين أيام الاحتلال، وكان ذلك يصنع أوضاعا استثنائية فى البداية ثم امتدت الإستثناءات لفترات طويلة حتى شملت كل الأيام فحبسونا داخل مناطقنا وفتشونا مئات المرات وانتهكوا حرماتنا رغم علمهم بعادتنا.. رجالنا لابد أن يشتغلوا، البعض يرعى، والبعض يزرع الوديان، وبعضهم يعمل فى الصيد فالمياه كثيرة والخير وفير، وقليل منهم يتاجر فى التموين وأشياء أخرى فيتحركون هنا وهناك، واليهود يريدون الأيدى العاملة الرخيصة فاستوردوا رجالنا أيام الاحتلال، يذهبون كل طلعة شمس إلى إسرائيل ويعودون قبل المغيب ولا يبيتون هناك أبدا. فالإسرائيليون يخافون رجالنا ولا يثقون فيهم البتة، ومعروف للجميع أنهم يحتاجون أيدينا وعقولنا، ولكن لا نستطيع أن نطالب برفع أجورنا فهم يهددوننا دائما باستطاعتهم جلب رجال آخرين بدلا منا وبذلك سيطروا على أرزاقنا بعد أرضنا فكرهناهم كما كرههم آباؤنا منذ زمن طويل يرجع إلى ما قبل دولة إسرائيل، وكما كرههم كل العالم فطردوهم من بلادهم ليتجمعوا فى أرض العرب، يفرضون وجودهم علينا. والكل يظن أننا نعيش على حافة الحياة، ولكننا نحن نعرف أننا نعيش على الحافة الشرقية للوطن وهى مسئوليتنا ووطننا.

مع دور الشاى الثانى حول راكية النار إلى جوار قسم شرطة الشط جلس الحاضرون يتحدثون تمضية للوقت، وحلا للشيخ جديع أن يتحدث كيف أن الإسرائيليين لما احتلوا سيناء عام سبعة وستين، درسوا وفهموا ووعوا كل القبائل، وحاولوا أن يتعاملوا معهم بالشاى والسكر والبن والدخان والوقود والدقيق. وقد يمنعونهم من ارتياد الآبار طلبا

للماء. كل ذلك مقابل أن يحيدوهم فلا يؤون الرجال المصريين عندما تدفعهم الجيوش ليجلبوا المعلومات للمخابرات المصرية. إعتقدوا ذلك دائما طول الوقت. وأيضا لم يكن أمام رجال سيناء إلا أن يستقبلوا الأوامر الإسرائيلية بتفهم وطاعة ويحصلون على كل ما يقدمونه لهم من إمدادات وتموين ونقود، هذا فى النهار عندما يملكون زمام الموقف وعندما يحل الظلام فإن الإسرائيليين كانوا يقبعون فى مواقعهم ولا يتحركون بالليل أبدا، فتصبح كل سيناء ملكا لنا يتحرك فيها عناصر الصاعقة والفدائيين فى حرية، نموه آثارهم ونخفى لهم معداتهم ونمدهم ببطاريات الأجهزة اللاسلكية والمياه والطعام.
ويأتى الإسرائيليون فى النهار منزعجين من العمليات التى تمت بمواقعهم فنقص لهم الأثر مع قصاصيهم لمسافات طويلة يدورون معنا فى دوائر واسعة مغلقة ولا يصلون أبدا لمكان الفدائى المصرى، الذى يقبع فى أمان ينتظر قدوم الليل ليتحرك إلى حيث مواقع الجيش الإسرائيلى ليرصد ما يشاء ونستلم له شفرة الإرسال الجديدة التى أرسلوها لنا مع زميله ثم ننقله إلى مكان بعيد ليرسل معلوماته إلى قيادته حتى لا يرصدوا مكانه السرى، وعندما ينهى مأموريته ننقله إلى معبرنا المخفى جيدا.

كنا نعبر القناة عند بور فؤاد والقنطرة والبلاح ونمرة ستة وكبريت والشط وبورتوفيق فى سبعة معابر. وفى كل نقطة عبور صول كالصول عتمان تماما وربما كان أشد منه ،وقد تختلف الملامح ولكن طريقتهم جميعا واحدة . فينظرون إلينا بطريقة حضرة الصول إياها . عندما نريد أن نزور أهلنا فى الغرب أو يقومون هم بزيارتنا أو عندما نشترى التموين من الكسارة فلابد من الحصول على التصريح الذى يتحتم مطابقته للكشوف والدفاتر الموجودة فى كل من نقط العبور السبعة ومعها دائما كشوف أخرى بأسماء المطلوبين لأى أمور يطلبونها، ينتظرونهم عندما يحضرون، وفى هذه الحالات تكون الإهانات والشتائم وسوء المعاملة فى انتظارهم دائما، وأحيانا تقام لهم حفلات يتلقون فيها ما يكفيهم من الضغط النفسى والبدنى، فيها تجويع وعطش وبرد وحر، وربما ضربات هنا أو هناك. والحق أن كل ذلك يكون فى انتظار من يكونون متورطين فى أعمال إجرامية تراها السلطات، وكذلك نحن أيضا إذا كانت هناك شبهة الإنحراف أو تهريب الحشيش إلى الوادى.

نحن نعرف مسالك الصحراء ودروب الجبال، وإسرائيل ترسل معونة المزاج لأصحاب الكيف فى الوادى، وهى فى هذه الحالة تكون كريمة للغاية فترسل لهم أصنافا عالية الجودة وبأسعار زهيدة لإغراق الشباب فلا يصلحون للقتال بعد ذلك. كلنا نعرف ذلك ونمتنع. والبعض تستهويه المغامرة فيحلم بالثروة السهلة، فيستسلم ويسلم النقود ، فنحتقر هؤلاء ولا نتعامل معهم ولا نشى بهم أبدا، فالبوليس المصرى ليس فى حاجة الى الوشاية بهم فكل أجهزة مكافحة التهريب تعرفهم جيدا. وكما أن فى الوادى منحرفين فإن لدينا أيضا بعضهم. وهؤلاء المنحرفون مع مرور السنوات شوهوا صورتنا فى نظر السلطات ففقدوا الثقة فينا واعتبرونا كلنا مهربين أو عملاء فقبل أن نعبر نصطف فى طابور طويل ونتحرك ببطء خلال ساعات كثيرة حتى نصل للتفتيش حيث تعمل أيديهم المدربة جيدا فى كل شئ بدقة شديدة لكل ما تلمس. ثم يبدأون السؤال عن أى أمر يخطر فى بال الصول. يسأل عن

الاسم والسن والأولاد والحمولة وطريق السير. ويا ويل من شاءت الظروف أن يركب معه شخص أثناء الطريق، فإن الاستجواب يأخذ اتجاها آخر يستغرق ساعات طويلة وربما أياما. ثم ننتقل إلى عملية التفتيش الذاتى التى قد تصل إلى العرى الكامل للبعض. ثم نخرج لنقف أمام عتمان آخر، يكتب ما نقول فى ورقة طويلة كأنما يدون قصة حياة الرجل بتفاصيلها الدقيقة على مهل، ربما اكتشف أنه كاذب لأنه اشترى نوعا جيدا من الدخان مثلا بدلا من الشاى فذلك يعتبر مخالفة وهروبا من الحقيقة. وقد تتطور الأسئلة عن هؤلاء لتشمل السؤال عن الزوجات وعددهن، وكم من الأولاد يعولون، وكيف يعيشون حياتهم ويستغربون عندما يسمعون أن لى زوجات ثلاث، وأن لى منهن تسعة عشر بين أولاد وبنات، أو أننى جد للمرة الخامسة عشرة، فتتسع الابتسامات، وأسمع لمزات الكلام ، فأتغابى عن استخفافهم برجل فى سن جدهم.
إذن ما العمل هذه المرة عندما تكون صابحة عروسى الجديدة برفقتى؟ وكيف ستكون الأسئلة والإجابات؟

أهلى وناسى عاصرونا وقيدونا إلى أرض سيناء لا نتحرك منها أبدا إلا عندما يسمحون لنا. يا ناس كيف تتحركون فى وطنكم من المنير إلى بلبيس والزقازيق والقاهرة، أو حتى إلى أسوان؟ وكيف تذهبون إلى الإسكندرية فى الصيف؟ كيف يتحرك فلاح من الطود إلى كوم حمادة أو إيتاى البارود أو دمنهور؟ كيف يتحرك الملايين فى هذا البلد الذى نحبه؟ ونحن فقط ربطونا إلى الأرض، الجميع قالوا عيشوا كما تريدون. قال ذلك الإنجليز كما قالها اليهود والمصريون. ونحن نسمع ونقول افعلوا ما شئتم فنحن نحب أرضنا ووطننا، كما نحب المصريين أهلنا، نحن منهم وهم منا ولنا جميعا شهداء سقطوا على أرض سيناء.

س : اسمك بالكامل؟ ومحل إقامتك؟
ج : اسمى جديع سالم مطير. وعمرى يعلم الله ، حوالى٦٥ سنة وساكن فى وادى الراحة. ماأنت عارف كل الكلام ده أكتر منى ياحضرة الصول.
– أيوه عارف. بس دى إجراءات وبيانات لازم نستوفيها كل مرة تروح فيها مصر.
ج : حاضر
س : ما سبب زيارتك لوادى النيل؟
ج : علشان اشترى طلبات العيال وأرجع.
س : ما هى المدة التى سوف تقضيها فى وادى النيل؟
ج : يومين ثلاثة حسب التساهيل.
س : وأين ستذهب بعد عبورك إلى الغرب؟
ج : أنا رايح السويس بس. وحاشترى الطلبات من سوق الكسارة زى ما أنت عارف.
س : وأين ستقيم فى السويس؟
ج : عند ناس من القبيلة فى الجناين.
س : ما هى أسماؤهم؟
ج : سليم وسليمان مطير.
س : ما هى الأشياء التى ستشتريها من البر الغربى؟

ج : الأكل والتموين العادى، شاى وسكر ودقيق، زى كل مرة ؟
س : ما هى وسيلة انتقالك للبر الغربى؟
ج : الفورد بيك أب اللى أنت عارفها.
س : مين راكب معاك للبر الغربى؟
ج : مافى حدا غير زوجتى الجديدة صابحة.
س : هل ستحضر معك أغناما أو جمالا من الغرب؟
ج : لا.

استغرق استجواب الشيخ جديع أكثر من نصف الساعة بواسطة الصول عتمان بعدها طلب منه الحضور بعد يومين لاستلام التصريح لأن "البيه" المأمور غير موجود ولا يعلم متى سيحضر، فهو فى مرور وليس هناك أى شخص له سلطة الموافقة وختم التصريح إلا هو شخصيا.
عاد الشيخ جديع بعد أيام ثلاثة للسؤال عن التصريح، فأخبره الصول عتمان أن ينتظر يومين آخرين، فاكفهر وجه الشيخ جديع دون أن ينطق، واستدار خارجا، فناداه الصول عتمان قائلا تعال يا شيخ جديع، مالك؟

- مافيش يا بنى؟
- إيه ؟ مش عاجبك وإلا إيه؟
- لا .. أبدا عاجبنى.
- ليه شكلك متغير.
- ما فيش .. أصل الدنيا حر، وأنا جاى على الجمل مسافة طويلة.
- وما جيتش بالفورد ليه؟
- أنا لا أحب استخدامها إلا فى المسافات البعيدة.
- خلاص المرة الجاية إبقى تعالى بيها علشان ما تتعبش.
- حاضر !! حاضر !!

انصرف الشيخ جديع كاظما غيظه. فقد قاربت المؤن على النفاد ولابد أن ينزل إلى السويس ليشترى المدد. ثم أنه رتب نفسه على السفر هذا الأسبوع وعقد العزم على ذلك. ولا يريد أن يغير حساباته، ولابد أن يتوكل على الله لقضاء ما يريد. ولكن هاهو التصريح يقف حجرا عثرة فى طريقة لا يستطيع السفر بدونه، وعلى الله التساهيل.

انتظر الشيخ جديع أياما أخرى حتى يعطى الصول عتمان فرصة أكبر لإنهاء الموافقة على التصريح وحتى لا تتضاعف المشاوير والمجهود. ثم ذهب فى اليوم الرابع فوجد التصريح جاهزا والحمد لله. لكن الصول عتمان قال له وهو يسلمه التصريح أن البيه المأمور طلب أن يراه قبل سفره إلى مصر، وأنه غير موجود الآن وعليه أن ينتظر أو يحضر فى الغد. لم يفكر الشيخ جديع ثانية واحدة، وقال بسرعة وثقة أنتظره بالتأكيد ، فإن فى ذلك فوائد كثيرة، أولها أنه سيقابل الرائد محيى اليوم، وهذا يعد مكسبا كبيرا ورضاً يتمنى الحصول عليه ، فالجميع يحبون الرائد محيى ويرون فيه الخلاص والفرج بعد

عبوس الصول عتمان، والثانية أنه لن يضطر إلى تأخير السفر يوما آخر، والثالثة أن الرائد محيى ربما يكلفه بشيء ما، ولابد أن ذلك سيكون شيئا هاما.

ثلاث ساعات فى الانتظار بعدها وصل البيه المأمور. ضابط طويل القامة عريض الكتفين ذو نظرات خارقة عبرت فوقهم بسرعة، ومرق قاصدا مكتبه. مضت نصف ساعة أخرى ثم طلب دخول الشيخ جديع. قام الرائد محيى واقفا مرحبا بالشيخ وقد اختفت نظرته إياها وحلت محلها نظرات صديقة ودود أذابت قلق الانتظار.

- أنا عملت التصريح علشان خاطرك بس.
- يسلم خاطرك يابيه.
- أصل اليومين دول أنت عارف إن الجيش طوارئ والتصاريح مقيدة جدا إلا فى حالات الضرورة.
- كتر خيرك يابيه .. ده عشمنا فيك دائما. وأنا برضه حالتى من الضرورة.
- بس أنت لازم ترجع بسرعة لأنى سأحتاجك معايا.
- حاضر .. كلها يوم أو أثنين وأرجع على طول.
- مع السلامة يا شيخ جديع.

كانت مقابلة قصيرة لم تستغرق سوى دقائق بعد انتظار ساعات ، وبالرغم من أن الشيخ جديع لا يجيد القراءة أو الكتابة إلا انه أخرج التصريح من جيبه وظل يحدق فيه لفترة طويلة بإمعان. فهذه الورقة الصغيرة المختومة كانت كل أمله ومراده خلال الأسبوع كله. ثم عاد الشيخ إلى الوادى ليبشر العائلة بحصوله على التصريح ويطلب من صابحة أن تهيئ نفسها للسفر فى الفجر فهو لا يستطيع الانتظار لأكثر من ذلك. كان ذلك فى الثالث من يونيو عام سبعة وستين.

ذلك اليوم الحزين منذ سنوات عديدة مرت. حلقت فيه مائتان من الطائرات الإسرائيلية فدمرت المطارات لمصرية والمعابر والمضايق، ثم دكت المواقع ومراكز القيادة فى صفاقة فاحتلت كل سيناء فى الخامس من يونيو عام سبعة وستين فى ست ساعات، صعدت فيها إسرائيل إلى المجد العسكرى فى صلف وجبروت، وأضافت الجولان، والضفة الغربية وجزءا من جنوب لبنان لتتورم مساحة الدولة، وننكمش من عار الهزيمة التى لحقتنا، انكمشنا لندخر قوتنا وفكرنا ليوم ربما يأتى.

كنت قد عبرت إلى الغرب أنا وعروسى الجديدة. وكانت صابحة مبهورة عندما رأت مياه القناة والشريط الأخضر غربها حتى الجناين، والمبانى على مشارف السويس. اشتريت لها خاتما من الفضة بفص أزرق، وقرطا من الذهب وعطرا وحناء حمراء وسوداء. استضافنا ابن العم فى داره فى الجناين. هو يعيش مع زوجتيه وأبنائه حياة الحضر بعد أن هجر الوديان والسفوح. عندما كان صغيرا تمنى العيش فى عتاقة. ولكنه أحب السويس عندما دخلها فعاش فيها وأتى بزوجته من سيناء، وتزوج أخرى من السويس ولم أكن أحبها فى البداية ولكن على مر السنين وجدتها أصيلة كأنها من بدو

سيناء من زمن بعيد . كانت مخلصة ودودة أنجبت له سبعة صبيان وبنتا واحدة ويعيشون جميعا فى بيت الجناين.

الهزيمة عالجها السياسيون فى القاهرة، والعسكريون فى القناة، ونحن أهل سيناء. انقسمنا فى الشرق والغرب. أنا فى الجناين مع زوجتى أقيم عند ابن عمى، وأبنائى وزوجاتى الأخريات فى الشرق، أحتاجهم ويحتاجوننى وأحن إليهم حتى يلتئم الشمل. إذا ، كيف أسافر أنا أو يحضرون هم؟ الجنود والدبابات اتخذوا المواقع على القناة مباشرة وعلى شاطئ الخليج أيضا. شهور الانتظار قاسية تمر، ويتمزق قلبي شوقا إلى أهلى وناسى هناك. ثم لاح بصيص من الأمل. ترددت أقاويل عن أن الصليب الأحمر الدولى يعد لعقد اتفاقيات لتبادل الأسرى، وعودة البدو إلى أهليهم. استغرقت المفاوضات وقتا طويلا دون الوصول إلى اتفاق. الاشتباكات الحربية مستمرة وحرب الاستنزاف لا تنتهى، وأشعل الإسرائيليون النيران فى مستودعات البترول فى الزيتية. كان حريقا هائلا، أشعل النار فى قلوبنا أياما كثيرة فكال لهم رجال المدفعية المصرية ضربات متتالية من مواقع بورتوفيق واللسان والكيلو مائة ستة وخمسين والمواقع شماله وجنوبه لدرجة لم ير فيها الإسرائيليون نور النهار لأيام طويلة من شدة وكثافة قصف المدفعية المصرية. وكلما تصاعدت الاشتباكات تضاءل الأمل أن أرى أهلى،

فنار أبو الدرج على خليج السويس كان يلقى الضوء ليلا على مياه الخليج ليرشد سفن العالم إلى الممر الملاحى حتى القنال. خبت أضواء الفنار وأصبح مظلما كل الليالى . الريس شفيق حارس الفنار ومديره والمسئول عن صيانته كل يوم يدور حوله يتفحص المبنى والمولد الكهربى ومخزن الوقود وفنطاس الماء العذب واللنش. الريس شفيق هو الملك وهو الحاكم بأمره ليلا ونهارا. ولما تغير الحال انتهت مهمته أن يجعل النور منتشرا طوال الليل ليرشد البحارة، فأصبح كسولا يستيقظ فى أى وقت ويصيد السمك ليلا أو نهارا ليعطيه للجنود المصريين الذين يحتلون موقعا قريبا من الفنار ويحس إلى جوارهم بالأنس والحماية. وهو يقضى الوقت بين الفنار والصيد وصيانة لنش الفنار فهو سائق اللنش أيضا، ويعتبر نفسه ملاحا ماهرا قادرا على تفادى الشعب المرجانية، ويعرف جيدا شاطئ الخليج الغربى والشرقى تماما كما الطريق إلى بيته فى حى الأربعين.

قال الشيخ جديع نحن نحبكم أكثر مما تحبوننا ولكنكم لا تحسون. فنحن رابضون على باب مصر الشرقى منذ الأزل نحميه ونصونه ونحافظ عليه قبلكم، مرت بنا فتوحات مصر كلها منذ الهكسوس، والفتح الإسلامي، والعثمانيين، والأتراك، ثم الفرنسيين وهم فى طريقهم لغزو الشام، ثم أعقبهم الانجليز ليضربوا الإمبراطورية العثمانية، ثم احتلوا خط القناة. وجاء بعدهم الإسرائيليون مرتين فى عام ستة وخمسين وعام سبعة وستين. ظل الأجداد على عهدهم محافظين ونحن من بعدهم نصون ذلك العهد. ولم تكن الخيانة فينا يوما، لا نبيع وطننا، ولا نشى أسراره. كانت رحى الحرب تطحن أبناءنا قبل أبنائكم.
وتضيع ثرواتنا من أجلكم. حتى لا يمر العدو سليما كاملا فيصل إليكم ويفاجئكم. فكنا نحن الدرع الواقى من العدو الذى يهددنا ويهددكم وهو جاثم فوق صدورنا وأرضنا التى هى أرضكم. ثم دفعنا الضريبة دائما من إخلاصنا ودمنا ومالنا.

المكان مكتب مخابرات السويس، والزمان بعد يوم الهزيمة بشهر كامل والشيخ جديع مصمم على مقابلة رئيس المكتب، والضباط يتعللون بانشغاله وأن عليه أن ينتظر يوما أو أكثر فإن الحمل ثقيل والجميع مرهقون مشغولون ولاحظ أنهم محبطون لا يريدون أن يتحركوا. وقف المقدم محيى برهة أمام الشيخ جديع الجالس فى حديقة المكتب منتظرا ، فانحنى عليه وأمسك بيده يشده ليقف، بينما أخذت المفاجأة الشيخ جديع، فصاح واحتضنه فلم يكن يعلم أنه قد ترقى واستلم مكتب السويس.
الشيخ جديع استمات محاولا إقناع المقدم محيى بعدالة قضيته ورغبته فى رؤية أولاده والانضمام إليهم فى الشرق. أو أن تقوم الحكومة بإحضارهم إليه فى السويس. والمقدم محيى من جانبه يحاول أن يقنعه أن طلبه هو وغيره محل بحث السياسيين فى القاهرة مع منظمة الصليب الأحمر الدولى.

كانت المفاجأة التى دبرها القدر أن يدخل إليهم الريس شفيق ريس ومدير فنار أبوالدرج الذى استدعاه المقدم محيى للمكتب لسؤاله بعض الأسئلة المعتادة عن مراقبته للتحركات فى الخليج خلال الأسبوع الماضى. لحظة كانت لا تحدث كثيرا عندما تلاقت عيون الرجال بينما كان الشيخ جديع يقول كلامه متحمسا مشتاقا لأولاده، ونظر إليه الريس شفيق يكاد يصرخ فيه إنه قادر بالفعل على توصيله للبر الشرقى للخليج والذى يحفظ كل شبر فيه ويقوده إلى نقطة لايعرفها لا العفاريت ولا اليهود ولا الجن الأزرق، والنقطة آمنة ليس حولها ألغام وصالحة لإنزال كتيبة كاملة لو أمر المقدم محيى. فى ذات اللحظة توهجت الفكرة فى عقل المقدم فأمسك بها يحرسها، وجلس ونظر إلى الرجال وأشار إليهم أن اجلسوا ، ووقف دون أن يتكلموا. وتوجه إلى الحجرة المجاورة ليستجمع شتات فكرة منفردا.

انطلق المقدم محيى داخلا مكتبه، فوجد الرجال جالسين وملامحهم مستريحة مطمئنة. ابتسم المقدم محيى ووجه الحديث إلى الشيخ جديع قائلا ألم أقل لك يا شيخ جديع أننى سوف أحتاجك معنا؟ ثم جلسوا يخططون معا عملية دخول الشيخ جديع إلى البر الشرقى.
الريس شفيق مصرى أصيل، جرفه تيار الحماس الزائد فطلب من المقدم محيى ثمن العملية! وكان الثمن الذى طلبه مبالغا فيه كثيرا ! ولم يكن هذا هو الوقت المناسب لمثل هذا الطلب، والعجيب أن المقدم محيى استجاب على الفور دون تفكير، حيث كان المطلب مقبولا وعادلا للغاية. فقط يحتاج إلى الجرأة والحماس، حيث طلب أن تكون مكافأته هى معاودة الرحلة مرة كل أسبوع، يقوم بتجهيزها له الشيخ جديع فى الشرق والمقدم محيى فى الغرب حتى يتمكنوا من لم شمل الأسر البدوية، وينقلون إليهم الأدوية والاحتياجات الضرورية وتعهد الشيخ جديع أن يبذل كل طاقته لإنجاح الخطة.

الشيح جديع وزوجته الصغيرة ركبا فى ظلام الليل لنش فنار أبو الدرج واتجه اللنش فى اتجاه الجنوب الشرقى لخليج السويس من مرسى الفنار وبه وقود إضافى تحسبا

لرحلة العودة. تطلع الجميع فى صمت إلى النجم فى الأفق واختار الريس شفيق طريقه موازيا للشاطئ الغربى بضعة كيلومترات ثم انحرف إلى الشرق وزاد من سرعته، وعبر الخليج كما لو كان يعبر نهر النيل فى أمان دون خوف أو تحسب لأى موقف مفاجئ ، وتركوها على الله.
الله دائما يدبر الأمور كلها. شاء لهم النجاة فى الداورية الأولى والثانية، وتحمس الشيخ جديع فرأس عملية لم الشمل فى سرية كاملة وتحركات ليلية خفية فى جنوب سيناء، وقرر أن يمتد نشاطه إلى الشمال، وبدأ يرسل رجاله فى الوقت الذى بدأ فيه المقدم محيى ترتيب أمور حماية هذه الداوريات، وفكر فى استبدال لنش فنار أبو الدرج بآخر من نوع أحدث، ولكنه نحى هذه الفكرة جانبا حتى لايلفت الأنظار، وقرر أن يرسل إلى الفنار طاقم إصلاح يؤمن صلاحية محرك اللنش حتى لايفاجأ الريس شفيق بأى عطل أثناء رحلته وربما أدى ذلك إلى اكتشاف الأمر. وهكذا نجحت الداورية الثالثة والرابعة مما دعا الشيخ جديع للمغامرة عائدا إلى السويس لمقابلة المقدم محيى لتحقيق المزيد من التعاون والتأمين. فى ليلة عودته كان الإسرائيليون قد رصدوا كل تحركاته، فقبضوا على الشيخ جديع والريس شفيق وخمسة عشر رجلا من بدو سيناء، كما قبضوا على لنش فنار أبو الدرج عندما كانوا متجهين به غربا إلى السويس، فقد كان الإسرائيليون ماهرين أيضا فى تأمين قواتهم.

ثلاث ليال مرت كلها استجوابات للأسرى المصريين من بدو سيناء لم يخرج منها شيمون بأى معلومات، سوى أنهم بدو يزورون أقاربهم ويشترون احتياجاتهم من الغرب ثم يعودون، وأنهم لم يحملوا معهم أبدا ألغام أو مفرقعات أو أسلحة، ولم يعبر معهم أى جندى أو ضابط مصرى. وانشالت القيادة الإسرائيلية للقطاع الجنوبى وانحطت ولم تصل إلى شئ فقرروا الإفراج عن الجميع فيما عدا اللنش والريس شفيق.
قامت الدنيا ولم تقعد علم الأهالى بالإفراج عن البدو الذين كانوا فى اللنش، فتجمعوا عند القطاع الجنوبى فى سيناء أمام مكتب شيمون معلنين أنهم لن ينصرفوا إلا بعد الإفراج عن اللنش والريس شفيق. شيمون أخذته العزة فلم يحاول التفكير فى الأمر، فاستدعى الحرس وعربة المطافئ لإغراق المكان بالمياه وإجبارهم على الإنصراف.
شيمون لم يكن غبيا، ولا يقبل أبدا أن يضغط عليه البدو لإجبارهم على الإفراج عن اللنش وسائقه. كان يفكر كيف يمكنه استثمار الموقف لصالح الإسرائيليين. وبعد تفكير قرر الخروج إليهم معلنا على الإفراج بشرط أن تتم موافقة السلطات المصرية على عمل اللنش نهارا بين أبو الدرج والشاطئ الشرقى وتحت سيطرة القوات الإسرائيلية وترتيبها، وأن يقوم المقدم محيى بالترتيب والإعداد عائلات البدو. وهو متأكد من أن المصريين سوف يفشلون فى هذا الترتيب، وأن البيروقراطية وتسلل القيادات سوف ترفض ذلك بالتأكيد، وبذلك يفقد البدو جزءا من ولائهم لمصر، ويميلون إلى جانبهم.

مساعد شيمون صاح منبها البدو أنه سوف يجرى التفتيش للجميع باستمرار رجالا ونساء، وحذرهم ألا يحملوا معهم ممنوعات أو أسلحة. شخص آخر يرتدى الملابس المدنية اقترب من الريس شفيق هامسا فى أذنه أنه يمكنه إكمال حمولة اللنش عندما يتجه غربا بأشياء أخرى يستفيد منها هو والشيخ جديع بالتساوى معا.الريس شفيق كان رفضه فوريا تلقائيا، فالحمولة المقترحة لم تكن سوى كمية من المخدرات من النوع الفاخر.

فجأة فى ضوء النهار، أمام فنار أبو الدرج، لاح فى الأفق اللنش وعلى متنه فردان فقط مقتربا من المرسى. وسرعان ما توجها إلى مكتب المقدم محيى يبلغانه بما حدث. لم يكن الأمر مفاجأة له، بل إنه كان يتوقع ذلك بعد كل رحلة للنش شرقا، وهاهي النتائج التى خطط لها مع قيادته تظهر بوادرها.
أعلن المقدم محيى مندوبى عائلات البدو بالجناين وعتاقة أنه يمكنهم تدوين رغباتهم فى السفر والمواعيد التى يطلبونها طبقا للكشوف التى أعدت لذلك حيث تقرر أن يقوم اللنش برحلته الأسبوعية ظهر كل يوم أربعاء إلى الشرق وسيعود إلى الغرب قبل آخر ضوء يحمل الآخرين الذين يرغبون فى زيارة أهلهم فى السويس.

على الشاطئ الشرقى وعلى سقالة ميناء رأس ملعب كان شيمون يقف محدقا فى نظارته المقربة يراقب اللنش وهو يبحر فى اتجاهه وقت الظهيرة بينما يحيط بشيمون عدد من أفراد الشرطة العسكرية الإسرائيلية يؤمنون المكان، ولم يكن يتوقع أبدا أن يتمكن محيى من إنهاء الإجراءات بهذه السرعة، بل إنه توقع ألا تتم أبدا وبذلك فقد تفادى المقدم محيى ما كان يرمى إليه، وأحس بإحباط شديد.

كان كل ما حدث نتيجة طبيعية للتحركات العسكرية المصرية، فإن الجنود والضباط الذين عبروا فى الداوريات الأربع الأولى مع الشيخ جديع، كان عددهم قد بلغ تسعين، حملوا معهم علاوة على تموينهم وأسلحتهم الخفيفة الأجهزة الحديثة التى زرعوها فى شمال سيناء وجنوبها حول مناطق تمركز الجيش الإسرائيلي.
كان لهؤلاء الجنود المصريين محطات كثيرة فى الوديان والسفوح بين أهليهم من البدو فسهلوا لهم سبل الاتصال والمواصلات وكانوا لهم أدلة ناجحين. فعندما قبض على الشيخ جديع بعد الداورية الرابعة كان الجنود والبدو قد نصبوا الكمائن على الطرق فى سيناء فى وقت واحد ودمروا أكثر من عشر سيارات جيب كان يستقلها القادة. وكان ذلك مؤشرا على ترابط المجموعة مع بدو سيناء فى تنفيذ العمليات.

اضطر الشيخ جديع أن يؤخر رحلات البعض من الشرق إلى الغرب حتى يمكن إعادة القوات المصرية التى أنهت مهمتها فى الشرق، واستجاب الجميع لذلك متفهمين . واستدعى المقدم محيى مندوب الصليب الأحمر فى السويس وأعلن عن موافقة الجانب المصرى على برنامج لم الشمل لبدو سيناء وأن الرحلات قد بدأت بالفعل. لم يذكر المقدم محيى لمندوب الصليب الأحمر أنه اشترك فى التخطيط والتنفيذ لهذا البرنامج ثلاثة من رجال مصر العظام هم المقدم محيى والريس شفيق وأولهم الشيخ جديع الذى ما زال يمارس رحلاته شرقا وغربا من نفق الشهيد أحمد حمدى بسيارته الفورد بيك آب العتيقة بعد ما اشترى لها محركا جديد يقودها ابنه الأصغر هو الخامس من زوجته الأخيرة صابحة، وهم يمرون دائما من النفق بدون تصريح. وعندما يتذكرون تصريح الصول عتمان فإن الشيخ جديع يضحك بشدة فيظهر فمه خاليا إلا من بعض الأسنان ويقول كانت أيام.

* *

العمليـــــة مســـــــخرة

المتهم الأول : سيد محمد أحمد ، وشهرته سيد سكر
المتهم الثانى : ثابت عبد المنعم أبو جرس وشهرته الأشوح
المتهم الثالث : محمد على مسلم وشهرته أبوجبة
المتهم الرابع : محمد عوض أبو ربيع وشهرته حموده
المتهم الخامس : سيد مصطفى جابر وشهرته العجوز

حكمت المحكمة العسكرية بالإعدام شنقا على المتهمين من الأول حتى الرابع، وعشر سنوات أشغال شاقة على المتهم الخامس مراعاة لصغر سنه. كان ذلك هو الحكم فى القضية رقم ٤ لسنة ١٩٦٧ أمن دولة عسكرية.

***

سيد سكر لم يتجاوز عمره الثلاثين عاما ولا يدرى كيف عاشها أو كيف مرت عليه السنون. كان يعيش فى مدينة القنطرة شرق بجوار محطة السكة الحديد يدور ليلا ونهارا حول عربات القطارات والمقاهى والغرز على أطراف العمران يلتقط شيئا من هنا أو هناك. سيد لم يكن له عائلة أو أقارب، كان همه أن يحصل على قوت يومه ولاتهمه الطريقة أبدا. كان الكل يعرفونه خاصة رجال المباحث والمخابرات ويستدعونه دائما عندما يفقد أحد الجنود سلاحه أو عندما تحدث سرقة من القطار الحربى أو معسكرات الجيش. سيد أحب دائما أن يسرق ويخلق لنفسه الفرصة كل يوم ليخطف شنطة جندى فيجدها مليئة بأصناف اشتراها من غزة أو فيها بعض خيرات الريف فيلتهمها ويسرع إلى أصدقائه البلطجية لينهبوا بعض أجولة اللب الأبيض من قطار البضاعة فيبيعونها ويشترون بثمنها نصف قرش حشيش يدخنونه بهدوء فى غرزة بعيدا عن العيون.

تذكر سيد سكر عندما دخلت القوات الإسرائيلية القنطرة شرق عام ستة وخمسين وطردوا أهلها غربا بينما ظل هو هناك وكان عمره لا يتجاوز سبعة عشر عاما وعرف كيف يستثمر وقته ومجهوده فى خدمة القوات الإسرائيلية ليحصل منهم على الطعام والفاكهة والسجائر، وكان يتغنى بعدها بالرزق الوفير الذى كان أيام الإسرائيليين رغم أنها كانت شهورا معدودة.

احتلت إسرائيل مدينة القنطرة شرق مرة ثانية فى عام سبعة وستين ، وهكذا دارت الأيام ووجد سيد سكر فرصة جديدة ليقدم خدماته متذكرا علب الطعام والعصير إلا أنهم هذه المرة كانوا أكثر بخلا وأشد قسوة حتى أصبح يفكر جديا أن ينضم للذين يعبرون

غربا فإن القوات كانت كل يوم تزيد احتياطات الأمن حولهم فبدأوا حفر الخنادق ومدوا الأسلاك الشائكة وزرعوا الألغام ثم حددوا إقامة الأهالى فى المدينة بل وحددوا طرق المسير داخلها وحولها.

فى نهاية شهر يونيو كانت القوات الإسرائيلية قد أحكمت قبضتها بالفعل على المدينة وكل يوم كان الأهالى يتجمعون عند المعدية يطلبون العبور إلى الغرب حتى كادت المدينة أن تفرغ من أهلها. شهر كامل وسيد سكر لا يجد ما يقيم أوده ولم يعد هناك شئ يسرقه أو يبيعه حتى صرخت مصارينه من الجوع يكاد يبكى فى ظل المبنى القديم لنادى الليدو شمال المدينة وتجمع مع أبو جبة وجموده يفكرون معا ماذا سيفعلون إذا استمر الحال بلا طعام أو دخان أو حشيش، إذن فى فليس أمامهم إلا العبور غربا مع الآخرين.

قبيل غروب الشمس يوم السادس من يوليو توقفت سيارة جيب صغيرة عليها مدفع رشاش ونزل منها ملازم أول ورقيب وأشاروا إلى المصريين المتجمعين بجوار المبنى القديم لنادى الليدو ونادى أحدهم أين سيد سكر. سيد قام مذهولا أنهم يعرفونه، إلا أنه تصنع اللامبالاة وقال إنه سيد سكر بنفسه مبتسما فى ثقة أنه سوف يجد الفرصة أن يؤدى خدماته ويحصل على علب الطعام والمربى والسجائر وربما كانت هناك فرصة أن يسرق شيئا آخر منهم. قالوا له أن أبو فريد يريد أن يراه، ورقص قلبه من الفرح.

ليل كامل ونهار بعده مضيا قبل أن يظهر أبو فريد الذى قالوا عنه. كانوا يقدمون لسيد سكر الطعام بانتظام فى حجرته بمبنى نادى الليدو الجديد والذى اتخذته القيادة المتقدمة مركزا لها.
أبو فريد لم يكن يعرف من هو سيد سكر، رجاله هم الذين رشحوه بعد أن تقصوا عمن يسهل لهم أعمالهم. وكان يظن أنه سيرى رجلا ضخما قويا كرجال العصابات ، ولكنه ابتسم عندما رآه رفيعا ممصوصا ضئيل الجسم، واستطاع أن يفهم بسرعة أنه من السهل أن يقوده فى الاتجاه الذى يريد وأن أجره سيكون بسيطا والأهم أنه يمكنه القيام بالمهمة.

أبو فريد كان المسئول عن أمن مدينة القنطرة وشمال سيناء وهو يهودى شرقى من أصل يمنى يؤدى عمله بدقة شديدة متمكنا من عناصره وأدواته يحافظ على مركزه بكل ما أوتى من قوة، ولم يهزه سوى انفجار قطار الغنائم والذى كان ينتظره، وقرر أبو فريد أن يرد على العملية بمنتهى السرعة حتى لا يهتز موقفه أمام القيادة.

سال لعاب سيد سكر بعد أن اكتشف أن له غرفة خاصة فى النادى ويقدمون له الطعام الفاخر والسجائر بكميات وفيرة فى مواعيد محددة ويعاملونه كشخصية هامة إلا أنه لم يكن مستريحا للباب المغلق عليه دائما، بعد يومين فقط أدخلوا عليه زميليه أبو جبة وحمودة وكانت مقابلة ساخنة للرفاق ن فقد تجمعت مجموعة "الشبيحة" التى لها القصص الطويلة والمغامرات حول محطة القطار لعملية السرقة والهروب والسهرات اللذيذة فى الغرزة فتلاقوا بعد الفراق.

أسبوع مر فى الترف الكامل. طعام فاخر ومشروبات باردة وسجائر وحلويات يقدمونها ، ينامون فوق الأسرة وعليها أغطية كاملة كما لو كانوا ضيوفا فى قصر عظيم. كل يوم يحضر إليهم ضابط التدريب يشرح لهم ويعلمهم تجهيز آلعبوة الناسفة ويختبرهم ويعدهم لعمل كبير. فى نهاية الأسبوع دخل إليهم أبو فريد بنفسه وشرح لهم المهمة وقال إن لكل منهم مائتى جنيه كاملة بعد التنفيذ، ثم أعطى كل واحد خمسين جنيها كفاتحة للشهية لينفذوا الواجب جيدا وبدقة. ولم يكن أبو فريد يصدق أن الثلاثة قد وافقوا ببساطة أن يقوموا بالمهمة، وخاف أن يكونوا كاذبين يريدون الانطلاق إلى الغرب. ولكن لماذا يكذبون وكان يمكنهم قبل ذلك الانضمام للعابرين غربا، إذن هى النقود وأحس أن رجاله قد أحسنوا الاختيار.

كانت الفرصة سانحة لأن يتزعم سيد سكر المجموعة، فطلب من أبو فريد أن يضم إليه العجوز والأشوح اللذين يقيمان فى القنطرة غرب ليسهل تنفيذ المهمة والاختفاء بعدها. فكر أبو فريد قليلا ثم اشترط على سيد أن يعود ومعه الزملاء الجدد ليكلف الجميع بمهمة أخطر، وأعطاه مائة أخرى من الجنيهات وهو يغمز بعينه مبتسما وطلب تبليغهم أن لكل منهم مائتين من الجنيهات أيضا عندما يحضرون إلى الشرق.

مرت ليلة واحدة كثف فيها أبو فريد التدريب والتلقين. كان ضابط المفرقعات دقيقا للغاية عندما يراقب سيد وأبو جبة وحموده وهم يربطون قالب الديناميت وفيه البادئ ثم يضعون المفجر المعدنى وبعدها فتيل الأمان ويكررون العمل مرة ثانية فى الجانب الآخر، ويقومون بحشو الفاصل بعجينة الجلجنايت. ثم يسألهم عن طريق الذهاب والعودة، ونقطة العبور إلى الشرق، وعلامات التعارف المضيئة ببطارية يدوية صغيرة، ويؤكد موعد عودتهم مرة حتى أحسوا بالإرهاق واشتاقوا جميعا للتنفيذ ليتسلموا باقى الأتعاب.

بعد منتصف الليل كانوا ما زالوا ساهرين، سمع سيد والزملاء الأقدام تقترب وفتح عليهم الباب، وكان كل شئ جاهزا، فركبوا معهم إلى شاطئ القناة. كان القارب الخفيف خلف تبة صغيرة شمال القنطرة قبل مواقع كتيبة الصاعقة التى تحتل مواقعها فى الكاب غربا. سيد يعرف المكان جيدا وأيضا يعرف طريقه تماما. ركب الثلاثة القارب وكل منهم له مجداف، واتجهوا إلى الشاطئ الغربى فى هدوء ومعهم كل معداتهم فى حقيبة بلاستيك صغيرة، وبعد أن وصلوا إلى الشاطئ جذب الإسرائيليون الحبل المربوط فى القارب المطاطى وسحبوه إليهم بينما كان سيد وأبو جبة وحموده يختارون أماكن أقدامهم على الأرض الجافة حتى لا تترك أثرا، وانسلوا فى الظلام جنوبا فى اتجاه القنطرة.

قال سيد سكر علينا أن نذهب أولا للعجوز فبيته أقرب وستكون مفاجأة أن يرانا معا ثانية ولابد أن نجعلها ليلة لا تنسى. خرج إليهم العجوز وصاح فرحا لرؤية الزملاء واقترح على الفور أن يذهبوا للأشوح لتكتمل الليلة به. اجتمع الخمسة حول راكية النار تدور بينهم الجوزة حاملة المعسل والحشيش وسيد سكر يشرح للعجوز والأشوح ما سوف يقومون به الليلة القادمة . وكأنهم وجدوا كنزا فقد وافقوا على الفور وشدوا الأنفاس حتى سقطت جفونهم وناموا جميعا.

قبيل العصر كانوا قد استيقظوا، وذهب العجوز لشراء الطعام، بينما ذهب سيد سكر يبحث عن الحشيش الذى سيدخنونه الليلة، فمنذ شهر لم يدخنه سوى الليلة الماضية. واجتمعوا ثانية يأكلون يدخنون الجوزة المعمرة بقطعة كبيرة من الحشيش لتشد أزرهم فيما هم مقبلون عليه ن ويحلمون بالنقود التى سيحصلون عليها، وانزلقوا يخططون لعمليات أخرى هم أبطالها، أملا فى ثراء سريع يتيح لهم كميات أكبر من الطعام والدخان ومستلزمات الكيف.

سيد سكر لم ينس ما هم مقدمون عليه فوزع الأدوار والمهام وحدد وقت العملية فى التاسعة مساء من نفس الليلة كما أمر أبو فريد، ثم قال مستورة إن شاء الله. المهمة كانت سهلة بالفعل فقد كان القمر بدرا والأشياء كلها واضحة وسهلة، طريق الاقتراب والهدف وحتى الأدوات ليست ثقيلة.

قسموا أنفسهم مجموعتين سيد وأبو جبة وحموده للعمل، والعجوز والأشوح للتأمين ومراقبة المنطقة، وتم كل شئ فى هدوء ولم يبق إلا إشعال عود الكبريت، وفعلها سيد واستخدم كبريت الهواء ليشعل فتيل الأمان وسيجارته أيضا، ثم جذب نفسا عميقا واستدار جاذبا زميليه، يعرف أن أمامه ثلاث دقائق كاملة.

لم تكن العبوة إلا قالبين من الديناميت وربع كيلو من الجلجنايت لذا فإن الانفجار كان صغيرا. رغم ذلك جرى سيد سكر والباقون إلى بيت العجوز ليختفوا فيه حسب الخطة.

انقسمت الآراء ، فسيد سكر وحمودة كان من رأيهم أن يبقوا ليلة أخرى حتى تهدأ الأحوال ثم يعبرون إلى الشرق فإن القوات المصرية لابد أنها رفعت درجة الاستعداد وسيكتشفون حركتهم قبل أن يصلوا إلى القناة.

أبو جبة كان خائفا لدرجة الموت خشية أن يتتبعهم الجنود المصريون، وانتقلت عدوى الخوف إلى الأشوح فقررا الذهاب على الفور فلم يبزغ الفجر بعد ويستطيعون الوصول إلى نقطة المقابلة على الضفة الغربية للقناة ويطلقون إشارتهم وسيحضرون إليهم بالقارب لالتقاطهم.

سيد سكر لم يمانع فإن ذلك يخفف من مخاطر الاختفاء خاصة وأن أبو فريد قال إنهم سينتظرونهم الليلة قبل الفجر والليلة التالية تحسبا لأى موقف يطرأ، وأفهم أبو جبة أن يخبرهم أنهم سيحضرون فى الغد ومعهم أخبار الانفجار وما يحدث فى الصباح. تحرك أبو جبة والأشوح بسرعة فى الظلام شمالا ليتخلصوا من وجودهم فى المكان والموقف تاركين الباقين فى بيت العجوز. سيد سكر قال إنهم يجب أن يتفرقوا الليلة ولذا فإنه سوف يقضى باقى الليل مع حموده فى بيت مجاور فى نهاية القوات فى المنطقة وعناصر

المخابرات والاستطلاع كانت قد رصدت الانفجار الوحيد الذى حدث، وسرعان ما دفعوا بداورية إلى هذه المنطقة ثم لحق المقدم عاطف وبعض ضباطه للمعاينة.

لم يكن عمق الحفرة التى نتجت عن الانفجار يزيد على الربع متر بينما كسر قضيب السكة الحديد الذى كانت العبوة مثبتة به، وقد أطاح الانفجار بالفلنكة فالتوى القضيب المقابل فى وصلة واحدة طولها عشرة أمتار على المسار الفرعى الذى يستخدمونه فى مناورة القطار الذى أوقف عمله منذ أكثر من شهر لتأمين القوات فى المنطقة، خاصة أن الطريق من شمال القنطرة وحتى جنوب بورسعيد مكشوف للضفة الشرقية للقناة ومن السهل إصابة القطار بقذائف مباشرة. وهكذا لم تكن هناك خسائر تذكر سوى وصلتى القضيب والفلنكة الخشبية.

المقدم عاطف تعجب لما رآه، فإن داورية للعدو لا يمكن أن تخاطر بالعبور غربا والتوغل فى عمق القوات المصرية لتنسف قضيبا فرعيا للسكة الحديد فى عملية ضعيفة لا طائل منها، وحتى لو كان ذلك، فمن أين عبروا وإلى أى طريق انسحبوا ورأى أن هناك نقطة ضعيفة أدت إلى هذه العملية وأن من السهل إذن تكرار عمليات أخرى فى المنطقة.

قصاص الأثر وجد خمسة آثار للأقدام وعندما عاينها بدقة وجد أنها ليست لجنود إسرائيليين لاختلاف آثار الأحذية بل إن أحدهم كان حافى القدمين. سار الدليل يتتبع الخطى حتى انتهى بعد قليل إلى طريق ضيق بين بضعة منازل، وكادوا ييأسون عندما انتهت الآثار هناك. بصمة أخرى ضعيفة كانت أمام أحد البيوت أصر بعدها الدليل أنهم قد دخلوا هذا البيت الصغير ذا الطابق الواحد الذى يقع على أطراف المدينة. جنود المقدم عاطف حاصروا البيت، وتسلق بعضهم حتى وصل إلى السقف ثم قرع أحد الجنود الباب وسرعان ما أجابه صوت من الداخل ثم فتح الباب ولم يكن هناك سوى العجوز واقفا وهو يرتعد من بنادق الرجال الذين أحاطوا به.

كان العجوز واقفا يكاد يبول على نفسه من هول المفاجأة والرعب وسرعان ما جلس القرفصاء يبكى فى مواجهه بنادق رجال المخابرات دافعا عن نفسه التهمة مدعيا أن الآخرين هم الذين استدرجوه معهم. كانت المفاجأة أيضا للمقدم عاطف أن يجد فى مواجهته طفلا يكاد يبلغ الخامسة عشرة واسمه العجوز فوضع يده فوق كتفه يطمئنه أن رجاله لن يقتلوه. العجوز سار معهم دون مقاومة حتى وصلوا إلى البيت الذى يختبئ فيه سيد سكر وحموده فقبض عليهم ببساطة ودون مجهود.

لم ينته الأمر هكذا فقد كان هناك متهمان لم يقبض عليهما بعد وهما أبو جبة والأشوح. فبعد أن عرفا بأمر الباقين ظلا فى القنطرة شرق هاربين. المقدم عاطف رأى أن يتم عمله ، فسهر وجمع الخيوط وخطط لداورية تعمل خلف خطوط العدو وهدفها القبض على أبو جبة والأشوح والعودة بهما، ورغم صعوبة المهمة، وربما استحالتها ن استطاع المقدم عاطف التصديق على تنفيذها.

كانت الداورية مكونة من أربعة أفراد يقودهم المقدم عاطف عبروا بعد أذان العشاء فى ليلة مظلمة بعد استطلاع جيد لطريق الذهاب حتى لا يصطدموا بالعدو أو الألغام. كان لابد أن تبقى المجموعة بضعة أيام فأخفوا أنفسهم ومعداتهم، وبعد أن إطمأن عليهم المقدم عاطف تركهم مرتديا الملابس البدوية ليختفى بين أهل المدينة القلائل يعرف طريقة جيدا.

كانت الأمور مهيأة من قبل وفى نفس الليلة استطاع معرفة مكان أبو جبة والأشوح بالتحديد فالكل يعلمون بأمرهم وتحركاتهم بينما هم لا يأبهون بما يشاع عنهم.

كان الأمر أشبه بداورية لخطف الأسرى، فبعد إشارات لاسلكية بين المقدم عاطف وباقى الداورية تقدموا حتى أحاطوا بالهدف ودخلوا البيت فى هدوء. كانت المشكلة تكمن فى العودة بالمجرمين غربا، وكان لابد من تخديرهم حتى لا تنكشف الداورية، وعندما أفاقوا وجدوا أنفسهم فى مكتب المخابرات والحرس يحيطون بهم منتظرين إفاقتهم ليبدأوا استجوابهم تمهيدا لمحاكمتهم بعد القبض عليهم.

عشماوى ومساعده صفوت كانا يجهزان أنفسهما وأدواتهما وهما يبتسمان فإن الحصيلة أربعة من الخونة سينفذان فيهم حكم المحكمة. فوق مبنى السجن فى السادسة صباحا ارتفع العلم الأسود بينما خطوات ثابتة قوية متجهة إلى عنبر الإعدام وخطوات أخرى مرتاعة يجرون أصحابها بينهم، وكان سيد سكر أول من نفذ فيه الحكم وتوالى بعده الباقون.

* * *

شـــــلومو ... أهـــــلاً

هناك على ضفاف نهر النيل جنوب القاهرة يقع مستشفى المعادى العسكرى فى مواجهه جزيرة الذهب، وفى اليوم الثامن من شهر يوليو الحار المشحون بالرطوبة عام ألف وتسعمائة وسبعة وستين، كانت هناك نخبة مختارة من أمهر الأطباء يلتفون حول سرير يناقشون حالة المصاب ومدى إمكانية تحمله للجراحة التى انتهوا منها منذ أيام ثلاثة.
أحدهم قال إنها أعجوبة أن يظل على قيد الحياة بعد إصابته الخطيرة، آخر قال إنه لولا الإسعافات السريعة والدم الذى نقلوه له فى البداية لكان قد مات بعد ساعات من إصابته.
اهتمام جهاز المخابرات الحربية المصرى ومتابعة الحالة الصحية للمصاب كان كبيرا حتى إنهم أرسلوا ضابطا برتبة كبيرة ليكون إلى جواره لحظة إفاقته الأولى قبل أن يسترد وعيه تماما ويتمالك. وانتقل الاهتمام بالطبع إلى كل طاقم المستشفى فكانوا جميعا يقدمون الرعاية الفائقة، ويتابعون فى قلق تطور الحالة الخطيرة.

لم يكن الراقد على سرير مستشفى المعادى العسكرى وزيرا أو قائدا عظيما ولا ضابط فى القوات المسلحة، أيضا لم يكن أحد المصريين الذين يهتم بهم الرأى العام حتى تقدم له هذه الخدمة والاهتمام بل كان أحد أوائل الأسرى الإسرائيليين الذين أسرهم رجال القوات المسلحة المصرية بعد توقف القتال على الضفة الشرقية للقناة.
عيون الجميع كانت على مؤشرات الأجهزة الطبية الموصلة إلى الأسير يتابعون ضربات قلبه والضغط ودرجة الحرارة وحتى عدد مرات تنفسه كل دقيقة، والكل ينتظر ويدعو له بالنجاة فى هذه اللحظات الصعبة.

شظية كبيرة مزقت بطن الأسير وصدره، وأثناء الجراحة أزالوا جزءا من كبده وأمعائه كاد قد تهتك، وأغلق الجراحون مكان الجراحة وثقوبا أخرى فى الصدر والبطن والساقين من شظايا إصابته نزف منها كثيرا حتى أسعفوه.
اللواء مدير المستشفى وهو طبيب كبير حضر بنفسه ليطمئن على حالة الأسير وقف إلى جوار الفريق المعالج يقرأ تقريره الطبى ويسألهم عن سير العناية وأوصاهم ألا يغفلوا عنه لحظة.
آهة طويلة وأنة عميقة كانت بداية الإفاقة بعد انتظار طويل ثم إن الجميع تحولوا إلى آذان كبيرة تحاول التقاط أيه كلمة يمكن أن تصدر منه.
طبيبان وممرضة واحدة بشرتهم كانت بيضاء، الباقون كانوا سمر الوجوه بعيون واسعة صافية، كلهم يتحركون فى هدوء وثقة كأنهم يفعلون أعمالهم باستمرار لا يهمهم ما يدور

حولهم، لا ينفعلون ولا يسألون، فقط ينظرون إلى المحاليل والأدوات والأجهزة ويغيرونها أو يحقنونه، كل ذلك كان يتم فى صمت وهدوء.
إن ما يعيشه هذه اللحظة لا يشبه أبدا شيئا يعرفه. الناس قد تغيروا والملامح والأصوات. وأحس شلومو أنه فى كابوس ممتد مخيف، فآلامه الجسدية قد بدأ يحس بها ولا يستطيع إدراك الموقف الذى أحاط به.

ثلاثة أيام كاملة أخرى مضت على شلومو قدموا له فيها كل العناية والرعاية والعلاج وهو يصر تماما ألا يتحدث على الإطلاق، فقط يقبل الماء ويهز رأسه نفيا إن قدموا له الطعام كما لو كان مضربا عنه، وكل هذا لم يفده كثيرا ولا العناد، فقد كانت المحاليل والتغذية عن طريق الأوردة وكانت بنيته متينة فتحمل محنة الإصابة حتى بدا قويا فى اليوم السادس بعد الجراحة.

مساء السادس من يونيو الحزين كانت هناك مجموعة من المدنيين من قطاع غزة يقفون رافعين أيديهم لأعلى ووجوههم الى الجدار فى انتظار صيحة قائد الداورية آمرا بالضرب فيسقطوا شهداء بلا مقاومة، وانتظروا مرور الثوانى ليسمعوا آخر صوت فوق سطح الأرض قبل أن يموتوا مجانا.

تقدم منهم جندى يتحسس جيوبهم ثم نطق بكلمات عبرية الى قائده الرائد شلومو الذى أمره أن يسوقهم فى اتجاهه، وفهم الرجال أن عليهم أن يضعوا كل ما معهم على الأرض أمام الضباط الإسرائيلى الذى برقت عيناه فرحا عندما شاهد الساعات والخواتم الذهبية والأوراق النقدية التى تجمعت فى كوم كبير أمامه وأشار للرجال أن ينصرفوا فقد انشغل بما هو أهم، ثم وزع الغنائم على جنوده واستبقى لنفسه ما أراد وزاد عليه بطاقة شخصية لأحد رجال غزة ربما احتاج إليها فى صحراء سيناء لو جاءت النتائج على غير ما يشتهى.

كانت القوات الإسرائيلية تتقدم شمالا من القنطرة فى اتجاه بورفؤاد واستطاعت أن تحتل الشريط الضيق بين قناة السويس والملاحات شرقا فى منطقة الكاب والتينة، آملين أن يصلوا إلى رأس العش أيضا ولم يبق سوى أربعة كيلومترات فقط إلى نقطة الإرشاد.
عناصر استطلاع القوات المصرية غرب القناة كانت بالمرصاد للقول المدرع الذى يتحرك شمالا وعلى الضفة الشرقية للقناة فى وثبات بعرباته المدرعة والدبابات والعربات الأخرى النصف جنزير، ويسبق كل ذلك طائرة هليوكوبتر لتكشف القوات المصرية غرب القناة ولتحمى القوات المتقدمة.

عناصر الاستطلاع المصرية لم تكن لتترك الإسرائيليين يمرحون بسهولة ويمرون فى اتجاههم بيسر، وقائد قطاع بورسعيد دفع بعناصر من الصاعقة لتحتل رأس العش فى كمين عاجل يستقبلون فيه الوحدة الإسرائيلية التى ستحتل الموقع الذى تنازلت عنه القوات المصرية لتحمى عناصرها فى بورفؤاد فى خطة متكاملة.

دارت معركة رأس العش من طرف واحد غير متكافئة بالمرة، المصريون نصبوا الكمين على أرضهم وزادوا حقل ألغام رص بعناية رغم ضيق الوقت، وغلالات للمدفعية من وحدات بورسعيد وبورفؤاد ورأس العش فى الغرب كلها كانت جاهزة تماما فى انتظار إشارات قائد مجموعة كمين الصاعقة المصرية .

فتحت أبواب الجحيم وسقطت كل القوة الإسرائيلية فى مخروط نيران البنادق والرشاشات وقذائف آر بى جى لتصيد العربات المدرعة والدبابات بينما فرت مركبات العدو جنوبا وشرقا لتصطدم بالألغام أو تغوص فى الملاحات ويقفز أفرادها محاولين الاختفاء فى الثنيات الأرضية والتضاريس وطلقات المصريين تصطادهم واحدا بعد الآخر ثم فتحت نيران المدفعية لتستر انسحاب قوة الكمين ولتمنع تدخل عناصر جديدة تحركت شمالا من التينة لنجدة القوة التى تورطت فى منطقة رأس العش .

قائد قوة الكمين أمر بتطهير الموقع فانتشر الرجال ليؤمنوا أنفسهم وجزء منهم كان يطلق النيران على فلول العدو المنسحب ، وبعضهم كان يقوم بتفتيش الدبابات والعربات المدرعة ليحصل منها على الوثائق والخرائط والأسلحة الخفيفة التى يمكن حملها.

دارت معارك صغيرة بين بعض الإسرائيليين ممن حاولوا حماية أنفسهم ولكنها باءت بالفشل حيث بادرهم رجال الصاعقة بالطلقة الأخيرة التى تنهى الموقف .
فى عربة مدرعة كان يجلس رافعا يديه فى استسلام ذليل تبدو فى عينيه نظرات رجاء وأمل ألا يقتله الرجال المصريون ، بينما كانت الدماء تنزف من صدره وبطنه وساقيه بلا توقف، وعندما اقترب من الجندى المصرى سقط منهارا وقال: من فضلك يا بطل، ثم غاب عن الوعى .
عندما عادت القوة المصرية من الشرق كانت قد استولت على نماذج من أسلحة الإسرائيليين ومجموعة كبيرة من الخرائط الموضح عليها أوضاع قواتهم فى منطقة القنطرة شرق وشمالها وأماكن المدفعية والصواريخ والاحتياطات المدرعة التكتيكية وإشارات الاستدعاء ومفاتيح الشفرة على الخريطة واللاسلكى .

لم يكن ما أحضره المصريون من الكمين يقارن بما أتوا به من الشرق فقد كان معهم أربعة أسرى أحدهم جريح ينزف ويحتاج للإسعاف الطبى فأدخلوه مستشفى المعادى وتم وضعه على منضدة العمليات بعد إتمام عملية شرق رأس العش بثلاث ساعات فقط فأنقذوا حياته، وكان ذلك الجريح هو الرائد شلومو .
اجتمع ضباط المخابرات الحربية فى مكتب بورسعيد يقلبون الغنائم ويفرزون الأوراق والخرائط عندما توقف العقيد أسامة يتفحص تحقيق شخصية أحد الأسرى وطلب عدسة مكبرة ليرى تفاصيل البطاقة .

وتجمع الضباط حول قائدهم وقد أخذهم العجب جميعا فقد كانت البطاقة التى وجدت مع الأسير الإسرائيلى صادرة من إدارة الهجرة والجوازات والجنسية التابعة لوزارة الداخلية المصرية وعليها صورة الأسير الإسرائيلى بالفعل.
ولم تكن هذه البطاقة فقد التى وجدت مع الجريح بل كانت هناك بطاقة أخرى باسم الرائد شلومو إبرا هام اليعازر وعليها نفس الصورة.
سافر الرائد عبد الوهاب إلى الإسكندرية على الفور، وتوجه رأسا إلى المنزل رقم عشرين شارع طيبة بحى كامب شيزار العمودى على البحر ولكنه لم يجد هناك أيا من سكان الشقة رقم أربعة.
تحريات الرائد عبد الوهاب والتى أكدها الجيران وعناصر الشرطة أن صالح موسى الفلسطينى كان يقيم فى هذا المكان حتى اليوم الأول من شهر يونيو هذا العام وأنه طالب بكلية الهندسة جامعة الإسكندرية، وقد سافر بعد انتهاء امتحانات البكالوريوس، وهو معروف لديهم ويتمتع بسمعة طيبة وله صداقات معهم وأنه كثيرا ما كان يشترى بضائع من غزة ويبيع لهم ما يطلبون ليستعين بذلك على تدبير مصروفات دراسته، وقد وصفوه بدقة كاملة كان خلالها رسام المخابرات قد رسم وجهه وملامحه وقوامه مسجلين كل ما عرفوه عن هذا الرجل.
فى إدارة الجوازات والهجرة والجنسية أقروا بالفعل أن جميع البيانات المدونة ببطاقة الفلسطينى صالح موسى سليمة تماما ولكن صورته قد نزعت ووضعت أخرى مكانها.
عندئذ تحقق الرائد عبد الوهاب أن الأسير الذى يرقد فى مستشفى المعادى هو الرائد شلومو اليعازر وليس فلسطينيا خان بلده والأمانة، وتنهد الرائد عبد الوهاب فى ارتياح عميق بعد أن تأكد من الاحتمال الذى توقعه وعاد فى نفس اليوم متجها إلى مستشفى المعادى فورا.

أدارت الممرضة المقبض دورات عديدة حتى يصبح وضع سرير شلومو فى زاوية منفرجة ليتمكن من الجلوس، وعندما انتهت الممرضة من عملها وانصرفت نظر شلومو من النافذة ليرى لأول مرة نهر النيل ينساب متجها إلى الشمال بينما شاهد على حافة الأفق الغربى أهرامات الجيزة فى لوحة بديعة تعبر عن كل عناصر الحياة والمجد.

كانت هذه هى اللحظة الفاصلة التى أفاق فيها شلومو بالفعل وتأكد أنه يرقد فى مستشفى على ضفاف النيل، إذن فهم قد أسروه فى رأس العش وأن كل ما هو فيه حقيقة وليس كابوسا، فأنقبض قلبه وتجهمت أساريره بعدما تحقق من المأزق.
فريق ضباط الاستجوابات كان ينتظر عودة الرائد عبد الوهاب من الإسكندرية وكانوا يستعدون لمواجهة الأسير الإسرائيلى الذى بدأ يتماثل لأن يكون جاهزا للاستجواب وفق ما قرره الأطباء.
العقيد أسامه بنفسه قرر أن يبدأ بعد أن أتم دراسة الوثائق والخرائط التى حصلوا عليها فى عملية رأس العش، ولم يبق إلا مواجهه شلومو الجريح. وقبل أذان المغرب كان الرائد عبد الوهاب قد وصل إلى مستشفى المعادى وبذلك اكتمل الفريق.

- الحمد لله على السلامة يا صالح.
- مش صالح برضه؟
- العملية نجحت والحمد لله .. اطمئن.

– مالك يا صالح .. ما بتردش ليه؟
تماوت شلومو محاولا كسب الوقت للتفكير أو التخلص مؤقتا من الموقف. كان الرائد شلومو الأسير يرقد خائفا إلى حد الموت وأنهم ربما يفعلون به شيئا الآن.
"طبعا إنت عارف إنك فى مصر دلوقت. إنت أصبت فى عملية رأس العش وإصابتك كانت خطيرة ، واللى أنقذوك من الموت همه نفسهم اللى إنت كنت جاى تقتلهم . ودول كمان يا راجل اتبرعوا بدمهم علشان ينقذوا حياتك. ما إنت عربى، فلسطينى من غزة مش كده؟"
شلومو كان لا يصدق ما يسمع. يحاول أن يستوعب غير قادر على الفعل الإيجابى أو السلبى محصور ما بين العقيد أسامة والرائد عبد الوهاب .
إزاى نقدر نساعدك يا صالح؟ إنت فلسطينى فى جيش إسرائيل أودى خيانة لابد من محاكمة عسكرية مصرية والعقوبة إعدام بالتأكيد .
وتركوه فى غرفته محبوسا فى سريره بين جرحه الكبير والباب الذى يحرسه أفراد الأمن وشباك يرتفع خمسة أدوار عن سطح الأرض .
بعد منتصف الليل دق الجرس وأضاء الرقم أربعة مشيرا إلى غرفة شلومو ودخلت إليه الممرضة حنان فطلب منها أن يشرب واستبقاها إلى جواره محاولا اكتشاف طريقة يتخلص بها من موقفه، أو استمالتها لمساعدته على ترك المستشفى هذه الليلة .
حنان استمعت له برقة وربتت على يده بحنان قائلة: إنت باين عليك سخن شويه . سأحضر لك الترمومتر. وابتسمت حنان وهى تفتح الباب خارجة وتنظر باحثة عن العقيد أسامة أو الرائد عبد الوهاب .
كان لابد أن يدخل إليه العقيد أسامة والرائد عبد الوهاب على الفور رغم أن شلومو أصبح ضعيفا بعد العملية غير قادر على التصرف أو الحركة إلا إنهما قررا المواجهة السريعة لحسم الموقف فيجب أن يعودوا فى الصباح وقد انتهى الموضوع .
ربع الساعة كان كافيا ليستعد العقيد أسامة والرائد عبد الوهاب لبدء المواجهة والتى أعدوا لها جيدا خلال فترة
نقاهة شلومو والتى استغرقت ستة أيام لم يتماثل فيها بعد الشفاء، ولم يلتئم جرحه وحالته الصحية ليست على ما يرام، وما يزال فى حاجة إلى المزيد من الرعاية الطبية .
امتقع وجه شلومو عندما دخل فريق الاستجواب. الوجوه جامدة وارتسمت عليها ابتسامات ماكرة لها مغزى فهمه شلومو عندما وجد مع الرائد عبد الوهاب أوراقا يحملها فى يده اليسرى ويشير إليه بها لكى يستعد، هكذا فهم شلومو فأغمض عينيه وهو لا يكاد يصدق ما يحدث .
أنت تواجه الآن محكمة عسكرية ستنطق بالإعدام حكما على جريمة الخيانة .
إذا لم تحاكمك القوات المسلحة المصرية، فإن هناك محكمة عسكرية فلسطينية ستصدر نفس الحكم إذا أصررت أنك صالح .
يمكنك أن تهرب من هذا بالانتحار قبل المحاكمة أو تحدث معجزة تنقذك .
هكذا دار الحوار بين ضابط المخابرات وشلومو يسمع ويعى وتخور قواه يكاد أن ينهار وليس من سبيل، فقد أوقعوا به بالفعل .
مازال أمامك الطريق مفتوحا ربما إذا حاولت أن تساعد نفسك الطريق غير سهل ولا مأمون، فقط يحتاج إلى مرونة .

الإسرائيليون لن يأبهوا لموت فلسطينى آخر مهما كانت أهميته لديهم. وابتسم الرائد عبد الوهاب فى ثقة.
وقف العقيد أسامة وركز نظره فى عينى الأسير وتكلم ببطء عامدا أن ينتظر الكلمات. قال وهو يفرك يديه معا وتبدو على سيماه علامات السعادة بانتصار: إن " تساهال" جيش الدفاع الإسرائيلى سوف يحظى بعودة رائد من ضباطه من الأسر اسمه شلومو ابراهام اليعازر من سلاح المدرعات والذى كان قائدا لسرية الدبابات التى دمرت فى عملية رأس العش، وراح منه ثمانى دبابات وأربع عربات نصف جنزير وأربعة عشر قتيلا آخرين. القوات المسلحة المصرية سوف تبادل بك عددا لا بأس به من الأسرى المصريين.
كان شلومو يستمع غير مصدق ، فقط كانت جفونه ترمش وفمه نصف مفتوح فى بلاهة كما لو كانت المفاجأة قد شلته.
كيف عرفت اسمى؟
بطاقة ثانية لك كانت فى صندوقك الصغير فى العربة الجيب وجدنا فيه كل ما يخصك، وكله فى الحفظ والصون.
يمكننا الآن أن نتفاهم.. أنت الآن شلومو.. ومن قبل كنت صالح.. الصليب الأحمر الدولى يتفهم هذه الأمور جيدا.
نحن لم نبلغ بعد عن أسير جديد لدينا. أنت عندهم ما زلت مفقودا. يمكن أن تصدر الحكم الآن معا. هل تريد أن تكون صالح أم شلومو. هذا يتوقف عليك إذا تعاونت معنا. أنت تفهم جيدا أن ما نحتاجه منك هو بعض المعلومات عن القوات شرق القنطرة، وخطوط بسيطة ترسمها على هذه الخريطة. نحن نفهم إشاراتكم والعلامات على الوثائق والكروكيات.
يمكننا أيضا أن نتجاهل شلومو وصالح وكأننا لم نجدك على الإطلاق.
وأشار الرائد عبد الوهاب الى رقبته علامة الذبح.
كما يمكننا أن نعلن عن أسر الرائد شلومو ونخطر الصليب الأحمر.
نحن ننتظر قرارك وإليك الخريطة والأدوات ، وأمامك مهلة ربع ساعة فقط. أوضاع القوات الإسرائيلية شرق القناة فى منطقة القنطرة كانت معروفة ومدونة على الخرائط المصرية وأكدتها طلعات الطيران وداوريات الاستطلاع خلف الخطوط علاوة على بلاغات البدو فى هذه المنطقة، ولما قدم شلومو الكروكيات الى العقيد أسامة كانت كل المعلومات صحيحة وتدل على صدق شلومو تماما وأنه يرغب فى التعاون ليبقى حيا يبادلون به أسرى آخرين، كانت هذه هى البداية.
فى الصباح كانت هناك سيارة إسعاف مجهزة نقلت شلومو الى مستشفى آخر فى معسكرات المخابرات ليعتنوا به أكثر أثناء فترة نقاهته ويتلقى التدريب بعد ما اقتنعوا بصلاحيته ليكون عميلا جديدا لهم فى صفوف "تساهال".
بدا على شلومو أنه كان ينتظر أن يقوم بهذا العمل متحمسا لدرجة يبدو أن حب الحياة لدى شلومو والخوف من المجهول والرغبة فى التخلص من قبضة القوات المصرية جعلت منه جبانا لدرجة التهور بحماس لخيانة جيشه وبلده. وربما كان شلومو سعيدا بالحرية المنتظرة والأجر الكبير الذى سيتقاضاه نظير خدماته القادمة عندما يصل إلى إسرائيل ويبدأ فى إرسال المعلومات إلى القاهرة.
أطقم كاملة متخصصة من ضباط المخابرات المصرية تبادلت العمل على تدريب شلومو وتأهيله نفسيا للاستمرار فى التدريب وخلق الرغبة الداخلية أن ينفذ تجنيده كما تلقاه وخلق

قناعة داخلية أنه سيقوم بعمل هام يحقق له الثروة والأهمية الشخصية لذاته بعدما أقنعوه بكفاءة عناصر الجيش المصرى وأجهزة مخابراته.
استمر تدريب شلومو فترة قصيرة لا تتجاوز الشهرين فقد كان من البداية ذكيا مؤهلا بتدريبه العسكرى الأصلى كضابط بالدبابات فاستطاع استيعاب كل ما قدم له بسهولة فى هذه الفترة القياسية، وأجمعت تقارير مدربيه على تجاوبه ومهارته أثناء سير التدريب.
مبروك شلومو .. هكذا صاح العقيد أسامة عندما دخل غرفة شلومو ملوحا له بجريدة الأهرام التى صدرت فى نفس اليوم ٣ أكتوبر سنة ١٩٦٧ وفى صدر الصفحة الأولى خبر كبير عن أسر أربعة من جيش إسرائيل أحدهم برتبة رائد من سلاح المدرعات، وقد تم أسرهم فى عملية رأس العش فى شهر يوليو الماضى، وقد توج الخبر بصورة واضحة كتب تحتها اسم الرائد شلومو ابراهام اليعازر وهى نفس الصورة التى كانت على بطاقة صالح موسى وبطاقة شلومو العسكرية، وناوله العقيد أسامة الجريدة قائلا انهم بالفعل أبلغوا الصليب الأحمر عنه منذ أسبوعين، وأنه لابد أن تصله رسائل عائلته خلال الأيام القليلة القادمة.
"شايف صورتك حلوة ازاى، أحلى من نجوم السينما."
ابتسامة باردة بلا معنى ارتسمت على شفتى شلومو لاحظها العقيد أسامة وحار فى تفسيرها.
أيام خمسة أخرى مرت أنهى بعدها شلومو تدريبه، بعدها دخل إليه الرائد عبد الوهاب يأمره أن يجمع أشياءه الصغيرة ، فارتسمت علامات التساؤل على وجه شلومو وعندما أخبره الرائد عبد الوهاب أنه سوف ينضم إلى باقى الأسرى الإسرائيليين انفرجت أساريره وبدا عليه الارتياح أكثر عندما أخبره أن زملاءه ينتظرونه فقد علموا أنه أنهى علاجه بالمستشفى وسينضم إليهم مساء اليوم ، وكانت سيارة الإسعاف وحولها حراسة خاصة تنتظر شلومو لنقله إلى معسكر الأسرى فى مدينة نصر.
كل مرة كان يتأكد شلومو من جديه وصدق العقيد أسامة والرائد عبد الوهاب، فقد وصلت رسائل عائلة شلومو بع ستة أيام من وصوله الى معسكر الأسرى، كما اجتمع به مندوب الصليب الأحمر الدولى مع بعض الضباط الأسرى الآخرين واستلم منهم خطابات لأهليهم وأصدقائهم فى إسرائيل، كما تسلموا بعض الملابس والحلوى كهدايا من الصليب الأحمر وصلتهم كاملة، كل ذلك دعا شلومو إلى احترام الضباط المصريين ومعاملاتهم التى اتسمت بالرجولة والفاعلية والصدق.
انتظمت رسائل الأسرى الإسرائيليين وزيارات مندوبى الصليب الأحمر وتبادلت الأجهزة كشوف الأسرى وجرت الاتصالات لتبادل الأسرى أنفسهم كل ذلك كان يتم بينما كانت هناك برامج مدروسة متعددة نظموها للأسرى لزيارة المعالم المصرية والمتاحف ، وعقدت لهم ندوات، وخلال ذلك كان العقيد أسامة يسحب شلومو فى دورات جانبية لتنشيط ذاكرته حول موضوعات التدريب حتى تأكد من تمام تجهيزة.
كان أهم ما لفت النظر هو حماس شلومو فى التدريب لدرجة أنه بعد أن أنهى تدريبه وانضم الى زملائه فى معسكر الأسرى، استطاع بذكاء أن يتهرب من الإجابة على كل أسئلة الأسرى الآخرين حول المدة السابقة التى قضاها فى العلاج، بل إنه مارس بالفعل أعمال الجاسوسية البدائية فى المعسكر، فكان يقوم بنقل كل أخبارهم بانتظام إلى المسئولين عن الأسرى خفية مما أتاح لقائد معسكر الأسرى فرصة كبيرة للقيادة بنجاح، وكان العقيد أسامة على اتصال مستمر بكل ما يخص شلومو وسلوكه.
فى الساعة التاسعة من صباح ذلك اليوم استدعى قائد معسكر الأسرى شلومو خفية دون أن يشعر زملاؤه ، فجاء على عجل متسائلا حيث فوجئ بالعقيد أسامة أمامه يلقاه مرحبا.
سيصلك يا شلومو خطاب من أثينا أزرق اللون والعنوان مكتوب بالحبر الأسود بطريقة عادية والمرسل سيكون صديقك ليفى اهارون المقيم هناك وقد وصل إليك بالفعل على عنوانك المنزلى فى رامات جان أربع رسائل حتى الآن والسادسة سوف تكون مشتملة على الكربون الذى

ستستخدمه فى الكتابة إلينا على عنوان أثينا لنفس الصديق ولن تكون هناك أية مشكلات فى الرسائل .. قال ذلك العقيد أسامة مبتسما فقد كانت هذه هى المرة الرابعة التى يكرر فيها هذا الكلام، ولكنه اليوم كان حاسما يحمل معنى جديدا فهمه شلومو على الفور .

- متى ستبدأون تبادل الأسرى؟
- فى الرابعة بعد الظهر.
- معقول؟
- انت الوحيد الآن الذى علم بهذا ، وستكون مفاجأة للباقين عندما يعرفون .
- أريد أن أخبرهم أنا .
- لا.. لا يصح .. فهكذا سيعرفون أنك على اتصال وثيق بنا وهذا سوف يثير الشبهات
- آه.. لا داعى إذن لذلك .
- لا تنس .
- أوه.. لا تكرر ثانية.. أعرف جيدا ما سأفعله .

غمزة أخيرة من العين اليسرى للرائد عبد الوهاب، وجهها إلى شلومو بينما كان يضع قدمه على سلم الأوتوبيس الذى سوف يتحرك إلى نقطة التبادل وهز شلومو رأسه فى إيجاب وصعد ولم ينظر ثانية خارج السيارة .

- يا ترى..؟
- أنا متأكد أنه سوف ينفذ كل الاتفاق .
- لقد فعلنا كل ما فى وسعنا .
- لا أظن أنه سينسى شيئا .
- بداية أنا لا أثق فيه .
- كلها أيام وتثبت الرؤية .
- لا تتعشم كثيرا .
- لا.. أنا واثق مما فعلته .

هكذا دار الحوار بين الرائد عبد الوهاب والعقيد أسامة الذى نظر إليه بإصرار ورفع يده متحديا إياه مؤكدا أن تجنيد شلومو لم يكن هباء، فإن الرجل ينتظر الشيكات وسوف أرسلها له قبل أن يفكر أننا ربما نخدعه.بعض الأيام ننتظرها ثم نعلم .

أربعة عشر يوما مضت وكل يوم يحمل هما جديدا للعقيد أسامة ويضيف الأمل فى وصول رسالة من شلومو الأسير سابقا .

الرائد عبد الوهاب كف عن الحديث عن شلومو مع العقيد أسامة لدرجة أنه كان يتجنب المرور أمام مكتبه بالإدارة حتى لا يناديه .

مفاجأة لك يا عبد الوهاب .

قال ذلك العقيد أسامة وهو يقف يسد الباب بجسده الضخم رافعا يده اليمنى ممسكا بها رسالة مظروف أزرق مكتوب عليه بالحبر الأسود، وابتسامة أعرض من اتساع الباب ارتسمت على شفتيه بينما قفز عبد الوهاب يحتضن العقيد أسامة فى فرح غامر وحب وانتصار، فقد وصلت رسالة شلومو الأولى. .ولم تكن الأخيرة .

* * *

فى البدء كانوا شبابا رائعين، وفى التجربة راحوا رجالا مرموقيـــن،

سيمفـــونية الانتقام

الحركـــــة الأولـــــى

كان شهر يناير عام سبعة وستين قد انتهى عندما إجتاز النقيب عاطف دورة قادة سرايا الهاون صغير العيار بإمتياز. المقدم ممدوح قائد الكتيبة الخامسة استطلاع استقبل النقيب عاطف وهنأه على الدورة والإمتياز وحمله مسؤلية قيادة سرية هاون الكتيبة فقد اصبح مؤهلا لذلك.

النقيب عاطف قدر موقفه بسرعة ووجد أن ضباطه على وأبو العباس هم أيضا فى احتياج لحضور هذه الدورة، وليست هناك فرصة هذا العام لذلك، ووجد أن الحل قريب للغاية ، فليرتب الدورة بنفسه داخليا فى سريته قبل أن ينسى بعضا مما تعلمه، كذلك طلب من المقدم ممدوح الموافقة على ارسال قادة أطقم الهاون إلى مركز التدريب القريب لحضور دورة تنشيطية.
إذن لم يتبق سوى الجنود حتى تكون السرية كلها قد تأهلت من جديد على الهاونات، وخطط كل شئ للتدريب عمليا أثناء تدريب الضباط وضباط الصف ، وكانت فترة قاسية بذل فيها الجميع مجهودا مضاعفا. وبالطبع تأخرت إجازاتهم جميعا حتى موعد الرماية بالذخيرة الحية كإختبار حقيقى لكفاءة النقيب عاطف فى إدارة نيران السرية، والضباط فى قيادة الموقع، كذلك الأطقم فى تنفيذ المهمة وإنتاج النيران.

وصلت سرية الهاون إلى ميدان الرماية وبسرعة تمت تجهيزات إحتلال مركز إدارة النيران والموقع وبدأت إجراءات رصد الهدف وتشوين الذخيرة. فاجأهم المقدم ممدوح وأمر أن يتخلى النقيب عاطف عن قيادة مركز إدارة النيران ليتولاها الملازم أبو العباس فى حين ظل الملازم على قائدا لموقع النيران. وذلك كاختبار عملى لكفاءة التدريب فى حالة تغيب القائد.
تم تحديد الهدف على الخريطة والأرض، ودونت الاحداثيات للاتجاهات والمسافات بينما قادة الأطقم يتصايحون وينادون الأفراد لسماع تمامات التجهيز وربط البيانات على تليسكوبات الهاونات بعد التأكد من توازيها حتى تسقط كل الدانات فى منطقة الهدف. كل ذلك كان يتم بينما المقدم ممدوح يطالع بيانات الموقع والنقيب عاطف لا يكاد يتمالك نفسه يريد أن يتدخل فى إدارة البيانات ليطمئن إلى صحة الضرب' وبسرعة وفى الوقت المحدد كان الملازم أبو العباس ينادى إدارة النيران والموقع جاهز يافندم.

إضرب... هكذا أمر المقدم ممدوح، وانطلقت فى الجو دانة التدوين من هاون الأساس لتأخذ خط سيرها عاليا وتسقط فى البرميل الذى كان نقطة الرصد وسط منطقة الضرب وانفجر البرميل متلاشيا تماما وسط دهشة الحاضرين فإن ذلك لا يحدث كثيرا إلا مع أسلحة الضرب المباشر. وكان أن صاح الكل فى فرحة غامرة أن كانت طلقة التدوين دقيقة بهذه الدرجة، وابتسم المقدم ممدوح وشكر الجميع على حسن تدريبهم وانصرف بعد أن اطمأن على مستوى رجاله فلم يكن هناك داع أن يحضر باقى التدريب والذى أثبتوا فيه من البداية المهارة التى يتمناها الجميع فى رماية الذخيرة الحية فزرع فى نفوس الضباط والجنود الثقة بالنفس والسلاح والزملاء فانضموا معا وتداخلوا متلاحمين يدا واحدة.

الحركة الثانية

ولما كان اليوم الربع عشر من مايو كانت الكتيبة تتقدم شرقا على المحور الأوسط فى سيناء ضمن خطة التعبئة وتحركات الجيش لتحتل منطقة تمركزها فى الحسنة ثم تحركت ثانيا الى الشمال فى إتجاه العريش ثم أبو عجيلة وجنوبا إلى القسيمة. وكلما استقرت الكتيبة صدر أمر جديد بالتحرك حتى وصلت إلى نخل ثم التمد وبعدها الكونتيلا أقصى جنوب المواقع أمام الفرقة المشاة هناك فى تحرك طويل بعد أن استغرق ذلك أياما كثيرة حتى احتلت الكتيبة منطقة تمركزها.

عند الفجر فى اليوم الخامس من يونيو كان ضباط مجموعة إستطلاع المقدم ممدوح قائد الكتيبة قد خرجوا يستطلعون المنطقة ومحاورها فى رأس النقب جنوبا وظلوا يدرسون الخرائط والأرض حتى وصلوا إلى منطقة تحتلها فصيلة من قوات الحدود المصرية وكانت توجه أسلحتها إليهم داخل الأرض المصرية وأطلقت فى إتجاههم طلقات تحذير ألا يتقدموا أكثر.
تقدم ضابط من هذه القوة إليهم ليتأكد أنهم مصريون ولم يصدقه أحد على الفور عندما أخبرهم أن الجيش الإسرائيلى قد بدأ هجوما شاملا على ثلاث محاور فى سيناء، وأن عليهم العودة إلى مواقعهم فورا. كأنما العفاريت ركبت سائقى العربات المدرعة فانطلقوا بها بأقصى سرعة فوق المدق فى إتجاه الكتيبة، وكان لابد أن يدخلوا منطقة الموقع من الخلف.

الملازم أبو العباس كان قد احتل موقع إدارة النيران لسرية الهاون، بينما الملازم على يقود موقع النيران وأطلقوا الدانة الأولى لتدوين إحداثيات الهدف ويصححون بعدها للضرب مجموعة على العدو الذى يلتف خلف موقع الكتيبة.
لقد رصدوا عربات مدرعة تجرى بسرعة داخل سحابة الغبار لا يدرون أنها مجموعة استطلاع المقدم ممدوح وبينهم النقيب عاطف قائد سريتهم. وسقطت دانة التدوين أمام العربة الأولى بمائة متر، سوف يصححها أبو العباس واضعا فى الاعتبار أن الهدف متحرك.
الكل لا يهمه القذيفة التى إنفجرت إلى جوارهم فلا بد أن يصلوا إلى موقع الكتيبة ولم يتبق سوى كيلو متر واحد ويلاحظون على البعد القوات الإسرائيلية متقدمة فى اتجاه المواقع تطلق نيران المدفعية والطيران عليها. العربات كأنها كانت طائرة فوق بساط الريح فسقطت الدانات الثانية والثالثة خلفهم، ثم اكتشف الملازم أبو العباس أنه يدون الضرب على مجموعة إستطلاع المقدم ممدوح الذى كان يصيح ضاحكا فى النقيب عاطف أنت علمتهم الضرب لكى يصيدونا أولا قبل أن يفعلوها مع اليهود.

كان الإسرائيليون قد استطاعوا التقدم بالفعل تحت ستر نيران الطيران والمدفعية إلى موقع الكتيبة استعدادا لاقتحامها، وتزامن ذلك لحظة أن وصل النقيب عاطف إلى سريته

فأمر أبو العباس أن يستمر فى إدارة النيران فهو قد دون بيانات الغلالات فوق القوات الإسرائيلية المتقدمة.
انطلقت دانات أبو العباس مجنونة عنيفة لتسقط فوق تشكيلاتهم بدقة تدربوا عليها، فى الوقت الذى كانت نيران الإسرائيليين تسقط فوق موقع سرية الهاون وانفجر أحد الصواريخ فوق درع دبابة قريبة، فأصيب المقدم ممدوح بشظايا كثيرة ونزف الدم ليلون سترة الأفرول باللون الأحمر.
لم يكن ذلك ليمنعه من إدارة معركة كتيبته فى الدفاع عن الموقع وإتاحة الفرصة لعناصرها أن تتقهقر إلى خلف موقع اللواء القريب فلم يكن من مهمة كتيبة الاستطلاع الدفاع عن المواقع بل تركت ذلك للواء المشاة وتراجعت تحت ستر نيران الهاونات، بينما وحدات الاستطلاع والدبابات الخفيفة تناور على وثبات وتحمى كل منها الأخرى فى تناغم وتناسق ثم لحق بهم المقدم ممدوح فى عربة مدرعة إلى موقعهم الجديد وقد التف حوله بعض جنوده والضباط يضمدون له الجراح فى نقطة إسعاف الكتيبة.
كانت الخسائر فى المعدات طفيفة بينما استشهد الرقيب بشرى بشاى عطية والرقيب ميلاد حنا والجندى ينى ميخائيل والنقيب صلاح عبد الوهاب والملازم عبد القادر الحلوجى، وكانت غصة فى القلوب ودمع متحجر فى العيون وغيظ ملأ النفوس.

تلك الليلة بعد أن كشفت القوات فى سيناء وأصبحت بلا غطاء جوى يحميها وباتت فى متناول كل أسلحة القوات الإسرائيلية وكذا فى غياب الاتصالات اللاسلكية والأوامر فإن الانسحاب قد بات وشيكا.
لم تتحمل القوات أكثر من يوم آخر وليلة واحدة. ثم كان الإتجاه غربا عبر سيناء إلى المضايق المصيدة التى أحكمت القوات الإسرائيلية الأعمال لغلقها حتى لا تمر القوات بأسلحتها ومعداتها.
والنقيب عاطف يحس الرمل فى عينيه والمرارة فوق لسانه والإحباط فى أوجه عندما وصل إلى ممر متلا وكانت العربات محترقة بما فيها من جنود وأسلحة ومعدات وقد تجمعت ألوف القطع فى مشهد مأساوى مهيب مجسم لأمل راح، فقد كان واثقا عندما عبر إلى الشرق أنه سوف يصل إلى تل أبيب، ثم فى هذه اللحظة يناور ليمر غربا فى إتجاه العودة، وانزلقت دمعة صامتة مسحها خفية بهدوء.

سرية الهاون وبعض عربات سرايا الاستطلاع التى إنضمت إليها خرج بها النقيب عاطف شمال الطريق بضعة كيلومترات حتى لا يتعرض للقصف الجوى حتى وصل إلى مدخل متلا ورأى الصورة الكئيبة ولم يكن هناك إلا ثلاثة حلول، فجمع ضباطه وألقى إليهم بها ليختاروا واحدا.
كل الحلول كانت صعبة للغاية فإن الأول كان أن يمروا خلال المعدات المحترقة فى مداخل الممر بسرعة، مستخدمين دبابة فى المقدمة ويتم ذلك فى الفاصل بين غارتين جويتين، حيث كانت الغارات فى اليوم الثالث للقتال على أشدها. أما البديل الثانى فكان الاتجاه شمالا والعبور غربا من الإسماعيلية، وقدروا أن الموقف هناك لن يكون بالأفضل. وكان الاختيار الأخير أن يتوقفوا حتى الليل ثم يمرون حيث أن كفاءة الغارات الجوية ستكون أقل والتعرض للضرب الجوى ستكون نسبته بالتالى أقل. تجمع الكل على الرأى الأول، وكانت

مغامرة كبيرة للنقيب عاطف أن يفعل ذلك فى وقت قصير بسرية كاملة الأسلحة والمعدات ولكن كان حظه عظيما، فكان السائقون على درجة تدريب عالية ونفذوا بسرعة لينضموا إلى باقى الكتيبة فى الغرب، كان الفارق كبيرا بين رحلة الذهاب ورحلة العودة، وفى ذات الوقت كانت العقول تفكر فور الهزيمة كيف يكون النصر ومتى.

الحركة الثالثة

كان الزعيم يلقى خطاب التنحى حزينا فى لهجة مؤثرة، يحمل نفسه وحده مسئولية الأحداث. وملأ الغيظ عاطف كيف يتأتى للرجل أن ينسحب فى أقسى المراحل الحرجة من عمر الأمة العربية كلها، متخليا عن قيادة شعب مصر فى أحلك الأيام والمواقف، وبعد أن أفقده سيناء والجيش معا، وبعد أن تحطمت أحلام الشعب فى مستقبل رخاء قريب. لو حدث ذلك فإن نائبه سيتولى المسئولية ويستريح ناصر بعد أن جلب الهزيمة.
إن النهاية لا يمكن أن تكون هكذا أبدا، رغم شعور التشفى عندما رأى الزعيم يكاد يبكى على شاشة التليفزيون، ولكن عندما خرج الشعب فى مسيراته ينادى ببقاء ناصر أحس أن ذلك هو الأكثر مناسبة، ولا بد أن الرئيس سيولى كل الاهتمام لإعادة تجميع القوات المسلحة وتدريبها لتكون مستعدة لحرب تالية ترد الاعتبار الذى ضاع فى ستة أيام فقط.
عاش الجيش كل لحظات الهزيمة، وعاش الشعب حينا يرى كل شئ مهتزا بما فيها الثقة فى القيادات والجيش والتخطيط، وربما معجزة من السماء تنقذ مصر مما هى فيه، ولما لم تحدث بدأ الناس يتفكهون على أنفسهم والجيش عندما يجدوا شيئا يتعلقون به أملا.

الكل كان ينتظر أن يتغير شئ فى الموقف حتى يحس الجميع أن مصر مازالت حية قادرة على الفعل، ولن يكون ذلك إلا بالقوات المسلحة.
النقيب عاطف كان قد اصبح رئيس استطلاع القنطرة وتجمعت لديه المعلومات أن الإسرائيليين يقومون بتجميع الأسلحة والمعدات التى تركها الجيش المصرى فى سيناء ليرسلونها شرقا بعد تحميلها على القطار المتجه للعريش.
لوريات كثيرة حملت الأسلحة الخفيفة وجرارات تشد خلفها مدافع الميدان وأخرى تحمل الدبابات، رصدوها تتجه إلى محطة القطار. إذن فسيجعلونها جاهزة للاستخدام ضد المصريين مرة تالية. فقال عاطف لابد أن يتوقف ما يحدث وإلا جن أومأت من القهر، وكان الكل ينتظر.

طار فوق مواقع القنطرة شرق تشكيل جوى مصرى فى مهمة مزدوجة للإستطلاع وضرب وتكديس المعدات التى داوم الإسرائيليون على نقلها شرقا. نجحت المهمة واستغرق تنفيذها دقائق قليلة، استطاعوا فيها تدمير كمية من المعدات حول محطة الشحن وأحدثوا خسائر كبيرة فى أفراد العدو الإسرائيلي. لكن الإسرائيليون استطاعوا إصابة طائرة الطيار مرتضى الرفاعى الذى قفز بالمظلة قبل أن تنفجر الطائرة.

على الجانب الآخر كان النقيب عاطف لا يكاد ينام، بعدما فكر وقدر وخطط وصدق على تنفيذ المهمة التى كان هو قائدها ومنفذها ومعه أربعة من الزملاء من كتيبة الاستطلاع، يحملون معداتهم على أكتافهم وأرواحهم على راحات أيديهم، لا يبالون بشئ سوى أن ينجحوا فى المهمة الجديدة.
تحرك بهم القارب فى ظلام الليل وعبروا القناة شرقا والتفوا فى سيرهم من بعيد حول مواقع العدو حتى إلتقوا بالشيخ نعمان فى نقطة مقابلة كانوا قد حددوها قبلا. الشيخ نعمان كان قد أعد لهم من أيام كل ما طلبوه من ألغام ومفرقعات حصل عليها من تكديسات حول محطة القنطرة والذى لم تحرسه القوات الإسرائيلية بعناية.

استمر النقيب عاطف ثلاثة أيام فى الشرق يجهز للعملية، كل ليلة ينجز جزءا منها حتى أتم فى الليلة الأخيرة كل استعداداته. فى فجر اليوم الرابع كانت الانفجارات تتوالى بينما شحنة القطار تشتعل وقد نسفت كل تكديسات الذخيرة المشونة على الأرض والقطار، وجزء كبير من قضبان السكة الحديد، فأفسد عليهم الوليمة التى كانوا قد أعدوها لأنفسهم، وأصبح لديهم تلا من الحديد المنصهر وقطارا مدمرا بينما قتل معظم الحراس حول القطار فى تلك الليلة.

كان دليل داورية العودة هو نفسه الشيخ نعمان يسبقهم فوق جمل يتبعه الآخرون، والنقيب عاطف يسير فى المؤخرة ليحمى ظهورهم جميعا. كانوا يسيرون فى نفس الطريق الذى جاءوا منه، ولكن كان هناك اختلافا كبيرا، فقد كانوا عائدين وروحهم المعنوية عالية للغاية فرحين بالنصر الصغير الذى عملوه بأيديهم، بينما الشيخ نعمان كان يفكر فى الداورية التالية التى ربما كان عليه أن يصطحبها فى رحلة الدخول ويفكر كيف سيحصل لهم على كميات أخرى من الديناميت والجلجنايت والألغام ليستخدموها فى عملياتهم القادمة فإن وزنها كبير وعليه أن يجهزها لهم فى فترة قريبة.

على المعبر وفوق الضفة الغربية لقناة السويس استقبل الزملاء النقيب عاطف وجنوده، واحتضنوهم بقوة وصمت، ودلفوا فى ظلام الليل إلى عمق المواقع حيث كان فى استقبالهم الضباط والجنود. المفاجأة أن رئيس استطلاع التشكيل كان هناك. وكانت مظاهرة استقبال للفاتحين وكأنهم حرروا سيناء كلها، فقد كانت أولى العمليات بعد أن استقرت الأوضاع، وارتفعت هامات تنظر للمستقبل وتتساءل عما يحمل بعد ذلك.
أصبح النقيب عاطف قاسما مشتركا فى كل الدوريات إلى الشرق فى القطاع الشمالى، فكان يحضر مع القادة تخطيط الدوريات ويقوم بالتدريب والتجهيز وتنظيم التعاون مع القوات التى ستدفع الداورية، والأخرى التى ستحميها بالنيران أثناء الذهاب والعودة. ثم يعود عاطف يرافقه كل أفراد داوريته ومعهم الأسرى والأسلحة والوثائق حتى أصبح الجميع يتفاءلون أنه سيكون قائدا لإغارتهم أو كمينهم على الضفة الشرقية، وكان له بصمة فى كل موقع على امتداد القناة ويسألونه ويستشيرونه فيما يراه فى مواقع العدو حتى يعدون له الأسلحة والمعدات والأدوات المناسبة.
فى كل مرة كان عاطف يعود تبدو عليه السعادة ولا يلبث أن تتملكه حالة الشرود والقلق، ثم ترتسم على محياه علامات الحزن، وعندما يسألونه كان يقول لن ارتاح أبدا إلا عندما

أقضى عليهم كلهم وبالتأكيد لن أفعل ذلك وحدى، سنكون جميعا فى حرب قادمة، ولكن لا أدرى كيف ستحدث.

طالت الأيام والشهور، والكمائن والإغارات على طول الضفة الشرقية للقناة. ينفذها عاطف مع باقى الزملاء فى كل الوحدات. وبدأت أعمال القناصة يصيدون فيها جنود العدو فوق خط بارليف، كلما ظهر أحدهم بادروه بطلقة محكمة تنهى حياته وترعب الباقين حتى خلا الخط وخنادقهم وإختباوا فى العمق.
حتى تزايد رعبهم فنزعوا قضبان القطارات ورصوها سقفية فوق خنادقهم، وزادوها بأقفاص حديدية ملأوها حجارة أطنانا خمس طبقات أو أكثر بارتفاع عشرة أمتار إتقاء من انفجارات دانات المدفعية والصواريخ وقصفات الطيران. وحبسوا أنفسهم فى النقط القوية وجعلوا جنود المراقبة يرتدون الملابس الواقية من الرصاص حتى لا يصطادهم المصريون فأصبح جميعهم مرهقين ليل نهار.
ولم يكن عاطف ليهدأ أبدا فكان يتسلل دائما إلى المواقع يدرسها ويتعرف على تخطيطها وأساليب حمايتها ونقط القوة والضعف فيها ويرسمها فى خياله بدقة حتى إذا ماعاد مرة تالية مع داورية أو إغارة، فإنهم كانوا يجوسون خلال النقطة القوية أو الموقع كأنما هم فى نزهة، فيقتلون ويعودون بنصر يقولون دائما عنه أنه نصر صغير، يتطلعون أن تكون كل سيناء لهم ثانية.

الحركة الرابعة

شهور الاحتلال طالت حتى اكتملت ستة وسبعين، وزادت أياما عندما أعلنوا أن رؤية الهلال قد ثبتت وأن الغد صيام أول رمضان وفرح الناس والجنود وتناولوا سحورهم وأصبحوا يعدون لطعام الإفطار ككل أيام رمضان التى يعرفونها.
لكن لم تكن هذه الأيام لها نفس الطعم بعد أن أعلنت التعبئة العامة وإتجه شباب مصر إلى الأقسام ومراكز التدريب والإمداد بالرجال، وكذلك شملت خطة التعبئة كل المصانع والشركات فأصبح إنتاجها وأعمالها فى اتجاه المجهود الحربى وحتى سيارات النقل والأتوبيسات. واصبح السؤال فى كل شارع وبيت هل يعدون حقا للقتال؟

النقيب عاطف كان قد ترقى لرتبة الرائد، وكان فى موقعه يجهز خطة دفع عناصره فى عمق العدو لرصد تحركاته فى حالة اقتحام خط بارليف بعد عبور القناة والتقدم شرقا، شأنه كما كل تدريب على الخريطة أو على أرض مشابهة لمسرح العمليات. فى هذه المرة كان يحس أن فى الأمر شيئا. ووضع داورياته وخطوط سيرها والكمائن التى سوف ينفذونها فى العمق وخطة اللاسلكى والبدائل وشفرة الإرسال. ورقم الدوريات وجعل لها أسماء وحدد لهم وسائل الدفع. خاصة التى كان من المقرر لها أن تعبر خليج السويس واتجاه تحركها والدعم الذى تحصل عليه حتى لا تفاجأ الفرقة المشاة بالدبابات الإسرائيلية تداعبها من الجانب الأيمن لها والذى كان يقوده صديقه العقيد فوزى محسن، وتساءل بعد كل ذلك هل يعدون حقا للحرب؟ واحتار فى اختيار الإجابة لنفسه.

علامات الاستفهام تضخمت عند المصريين والعرب، وامتدت لتشمل العالم كله ليكون التساؤل الكبير عن استعداد مصر وإعلانها التعبئة. لقد رصدت الأقمار الصناعية من فوق الدلتا ومنطقة القناة تحركات القوات والدبابات والصواريخ وأجزاء الكبارى والطائرات فى دشمها وعلى الممرات. كانت التكنولوجيا تغطى كل المجهود المصرى لصالح إسرائيل، وكان السؤال الضخم عندهم وفى أمريكا وروسيا هل حقا مصر جادة فيما يحدث؟ أو أنها المناورة الكبرى؟
لم يكد القادة الإسرائيليون يعلنون لأنفسهم أن مصر لن تكون جادة أبدا فى هذا الاتجاه وأنها بالتأكيد غير قادرة على الفعل. وأن اليوم هو عيد الغفران ويجب أن يقضوا بعضه وسط أهلهم. وأنهم سيكونون على أهبة الاستعداد إلى جوار تليفونا تهم إذا استدعى الأمر ذلك، حتى انصرفوا فى الواحدة ظهرا فى السادس من أكتوبر يمنون أنفسهم بعيد سعيد.

الحركة الخامسة

وكان عيدهم سعيدا على كل المصريين والعرب بعدها بقليل، فلم يكد عقرب الدقائق يكمل دورته فوق أى ساعة، حتى طارت كل مقاتلات مصر وقاذفاتها فى مجموعات من ثمانية أو إثنتى عشرة طائرة على خط الطيران صفر لتتلافى الرادارات والصواريخ، ولتعبر كلها قناة السويس على امتداد مائة وثلاثة وستين كيلو متر، هى مواجهة القوات وبعمق أكثر من مائة كيلو متر داخل سيناء.

فى ذات اللحظة أى قبل أربعة دقائق من الساعة الثانية بعد الظهر انطلقت الله أكبر من حناجر أكثر من سبعمائة وخمسين ألف جندى مصرى كانوا يحتلون مواقعهم الهجومية على الضفة الغربية لقناة السويس، ناظرين إلى السماء يتابعون طائراتهم فى طيرانها المنخفض فى إتجاه عمق العدو.

انطلقت منهم تسبيحة واحدة قوية رجت نفوسهم والأرض والمشاعر، لقد نادوا تسبيحتهم الله أكبر بكل الإيمان الواثق فى عون الله ونصره لهم. أسقطت الطائرات حمولاتها من الصواريخ والقنابل بتخطيط دقيق فوق مراكز القيادة والاتصالات والرادارات ومناطق الحشود، وقبلها مراكز الدفاع الجوى والصواريخ وتلاها النقط القوية على طول المواجهة، فى الوقت الذى انطلقت فيه النيران من فوهات ألفين من المدافع من كل الأعيرة فى أقصى معدل للضرب حتى أنه فى الدقيقة الأولى من القتال وحدها أطلقت عشرة آلاف قذيفة فى قصفات مركزة أصبحت تنتقل فوق المراكز والمواقع فى سيمفونية انتقام رائعة، أدارها ضباط مصريون أصروا أن ينهوا هذه الحكاية ويعيدون لمصر وجهها الأصيل، واستمروا يطلقون قصفات النيران متقطعة جعلت الإسرائيليين يعتقدون فى كل مرة أن هذه هى القصفة الأخيرة فيخرجون محاولين البدء فى القتال فيفاجأون بالسيل النيرانى فوقهم ثانية ليحبط أعمالهم وقوتهم وأمانيهم. وهكذا لم يعد لديهم بعد الدقائق أى أمل. وانطلقت إشارات الاستغاثة شرقا تستدعى الاحتياطات لنجدة القوات التى حاصرتها النيران المصرية.

مر على بداية التمهيد النيرانى عشرون دقيقة فقط عندما كان الجحيم المصرى مازال ينصب فوق رؤوسهم، والاستغاثات تنطلق متتالية، فى هذه اللحظات استجاب الله لتسبيحة الجنود المصريين جميعا وأيدهم بنصره وجنوده، فأصبح الكل فى صلابة الصخر والصلب، فاندفعوا يؤدون مهامهم التى تدربوا عليها فى سنوات المرارة ليحسوا أنهم يعيدون تنفيذ الطابور العادى للاقتحام.

وكان أن نزع الله الخوف من قلوبهم وزرعه رعبا فى وجدان الإسرائيليين، فانهاروا عندما كانت الموجة الأولى للفراعين المصريين فى قواربهم المطاطية الصغيرة، وقد انشروا جميعا فوق سطح القناة، ولم ينفع الإسرائيليين ساعتها خزانات النابلم التى أعدوها لتشعل سطح القناة نارا، وخاب أملهم ،فقد سدها أبطال الصاعقة البحرية والضفادع البشرية فى ليلة الهجوم على طول المواجهة، فزادوا ندما ورعبا وقبعوا داخل النقط القوية حصونهم التى ظنوا أنها مانعتهم، حتى دخل عليهم أبناء مصر فاتحين النيران والمواقع، ليحصدوا نتيجة الصبر وتحمل الهزيمة وتدريب ست سنوات، فأفاضوا فى النيران وحصدوا الأرواح الإسرائيلية فى نصر غير مسبوق.

فر من بقى من الإسرائيليين تاركين المواقع والمعدات والأسلحة إلا قليلا، ودانات وغلالات المدفعية تمسح الأرض أمام الجنود تفجر الألغام والدبابات وتنسف المواقع وتسد المزاغل ويرتبك القادة والأفراد فتطيش ضرباتهم وتروح إلى هباء، ويزداد الرعب والانهيار ليتحول النصر كل دقيقة تمر إلى نصر أكبر وأحلى وأكثر بهجة ليسقط خط بارليف الأسطورة. قال الرائد عاطف لرجاله هكذا يكون النصر كبيرا.

كأنما كانت أمنيات الرائد عاطف وخواطره كلها رهن الإشارة فكلما تمنى تحقق ما طلب، فإن كل دورياته قد عبرت فى توقيتاتها واندفعت إلى مناطقها تحت ستر نيران الطيران والمدفعية، ووصلت إلى المربعات التى حددها لها، وأرسلت إشارتها المشفرة أنها ترى بوضوح الاحتياطات المعادية، وأبلغت المعلومات المطلوبة، فانهالت فوقهم النيران فذاقوها ساخنة فلم تتحرك من مكانها، والأخرى التى غامرت بالحركة كانت لها الكمائن بالمرصاد فأتت عليها، وأخذوا من الأسرى الكثير حتى لم يعد هناك قدرة لدى الوحدات لاستيعاب المزيد وبدأوا يرسلونهم إلى القاعدة فى الخلف، وهكذا كانت بلاغات عناصر الاستطلاع والداوريات خلف الخطوط تتوالى على الرائد عاطف، تكاد تكون واحدة فكلها تعلن أن القصف الجوى نجح وأن نيران المدفعية أحاطت بالعدو الذى تحرك شرقا.

إزداد قلق الرائد عاطف على داورية الجنوب التى يقودها الملازم فؤاد، وانتظر كثيرا إشارته اللاسلكية التى تأخرت. لقد رصدت القوات الإسرائيلية الداورية وطاردتها فى إتجاه القوات المصرية، وخشى الملازم فؤاد أن يدخل منطقة القوات من النقطة التى حددت له قبلا فتدخل خلفه الدبابات الإسرائيلية فتحدث خسائر، واستطاع أن يجذب نيران الدبابات التى تطارده إلى عرباته المدرعة فتركها فدمروها وراحوا يبحثون عن الجنود الذين اختفوا بسرعة فى المنطقة مضللين الدبابات الإسرائيلية التى تورطت فى الأرض السبخة على

ساحل خليج السويس الشرقى بعد أن غرزت جنازيرها، وفى المساء كان الملازم فؤاد وكل أفراد داوريته فى أماكنهم بين زملائهم يتلقون مهمة جديدة من الرائد عاطف.

الحركة السادسة

قبل أن يلتقط العالم أنفاسه من أخبار القتال فى الشرق الأوسط على الضفة الشرقية للقناة، وقبل أن يتمالك الإسرائيليون أنفسهم، كانت المعديات تنقل الموجات التالية من الوحدات المقاتلة.

كان المهندسون العسكريون فى نفس الوقت يلقون فى القناة بأجزاء الكبارى العائمة واللنشات تساويها وتجرها الى الشاطئ الشرقى والذى نسفوا جزءا منه بمدافع المياه التى كانت مفاجأة، فأزالت قطعة منه بمجهود رائع لتنطلق الدبابات وحاملات الصواريخ إلى العمق وتصد احتياطيات العدو التى استطاعت الإفلات وبدأت تتحرك فاصطادها قاذفو "آر. بى. جى" والطيران.

تصدت الوحدات المدرعة تحمى رأس الكوبرى على طول المواجهة، وكان هناك شهداء مهدوا للنصر الكبير الذى تم فى ساعات، بعد أن مر ألفان وثلاثمائة وأربعة عشر يوما كانت فيها سيناء بعيدة عن عيون وأيدى أبنائها، وأعادوها فأخذت أبناءها بين أحضانها، وانتهى اليوم الأول للقتال وقد حدد المقاتل المصرى ملامح الأيام التالية ليدوم النصر أبدا.

هكذا صنع الرائد عاطف وزملاؤه المعجزة التى تمناها شعب مصر لتنقذه مما كان فيه، وعندما حدثت استعاد الكل الثقة والاتزان والاحترام، وكانت خطوة أولى على الطريق ثم عادت كل الأرض التى ضاعت، أعادها شباب مصر واستقاموا شامخين.

* * *

المهمة المستحيلة

باقى (البداية من الهايدبارك)

نجح نافون أحد عناصر الموساد فى الاتصال بالقائد علاء الدين أثناء حرب الاستنزاف، واستطاع أن يجنده لحسابه بعد أن أغراه ثم ورطه فى شباكه، ولم يستغرق ذلك منه سوى شهور ثلاثة بعدها أصبح له السيطرة التامة عليه لينفذ كل ما يطلبه منه داخل وخارج صفوف الجيش. من البداية علاء الدين اتصل بالمخابرات الحربية عن طريق زميل، وقدم تقريرا وافيا عما يتعرض له مع نافون.

خطة كاملة، وتدريب متواصل قام به علاء الدين فى وحدته وبيته وبيت صديقه حتى أتقن دوره تماما في الاستسلام الكامل الذى فرضه نافون حتى وثق به، وبذلك استلم علاء الدين المهمة كاملة وسافر نافون وتركه ومعه جهاز لاسلكى صغير وآخر كبير له هوائى خاص مع تعليمات الاستخدام وبعض أدوات التخفى والتنكر والرسائل السرية.

الرسائل المدروسة ظهرت نتائجها الفورية، فإن أسماء القادة الجدد التى بعث بها علاء الدين فى رسالته الأخيرة، قد أرسل الموساد يطلب التركيز على الاسمين الأولين منها وجمع المعلومات المتاحة عنهما بأقصى سرعة.
ابتسم علاء الدين فقد حان وقت العمل الممتع، فأرسل إليهم أنه غير قادر بمفرده على القيام بالمهمة المتشعبة، ويلزم له الدعم البشرى للتنفيذ السريع.

فى اليوم التالى مباشرة وهو متوقف فى إشارة المرور بميدان التحرير أمام الجامعة الأمريكية وجد أحدهم يقتحم عليه سيارته ويقفز إلى جانبه. قدم الرجل نفسه على الفور اختصارا لفترة المفاجأة والدهشة.

قال- أنا ميشيل آريل، تتبعتك من أمام منزلك، ولم ألحق بك إلا هنا.

- تعرف طبعا أنه لابد من الاحتياط والحذر.
- لقد أرسلوا أن أقابلك على الفور لننظم العمل معا.
- سأنفذ ما تريده تماما، اطمئن.
- سوف نحقق معا كل المطلوب.

الصدمة أدهشت علاء الدين بالفعل، وظل صامتا يستمع ويستجمع قوته وفكره ويجاهد ليثبت ملامحه حتى لا يظهر انفعاله، فتماسك وقاد السيارة حتى توقف عند كازينو قصر النيل وجلس يستمع إلى ميشيل، وبعد لقاءات ثلاث انضمت ليليان إليهما وهى راقصة محترفة تعمل ضمن فرقة بفندق على نيل القاهرة.

المهمة كانت ترتكز على عدة محاور داخل القوات المسلحة وخارجها، ونظم علاء الدين العمل والمسؤولية، وبين أهمية السرية والكتمان والتخفى وعدم الاعتماد على الغير من المصريين أو الأجانب فى التنفيذ.

قال إنه يحتفظ لنفسه باتجاه الجيش لأنه قادر على التنفيذ وحده فى هذا الحقل الصعب، خاصة وأن احتياطات الأمن تحول بينهم وبين الاختراق، وبين لهم السبل الأخرى لتنفيذ المهمة، بل وحدد أسماء بعينها يتعامل معها القادة الهدف فى أماكن سكنهم والنوادى العسكرية والمدنية المشتركين بها، وحتى الكليات الجامعية التى التحق بها أولادهم، كما دون لهم كشفا بأرقام السيارات وأسماء السائقين والخدم وربما بعض عناوين صديقات الزوجات، وترك الباقى لهم.

تحددت خريطة العمل، والقائمين على التنفيذ، وأسلوب جمع المعلومات، وفى كل لقاء كانوا يطلبون ضم أحد العناصر المصرية أو الأجنبية، حتى بلغ عددهم أربعة عشر فردا منهم خمسة من المصريين والباقين وصلوا من الخارج أو كانوا من العاملين بالسفارات والشركات الأجنبية فى مصر.

الهدف كان جمع المعلومات عن مدير سلاح المهندسين العسكريين، والرجل الثانى للدفاع الجوى. وبالطبع فإن التخطيط للقتال سوف يشمل كلا الرجلين معا من حيث التدريب والتجهيز لمعرفة النوايا القتالية للقوات المصرية.

اتسعت دائرة المراقبة والأعمال لتشمل ميناء السويس والإسكندرية الحربى والتجارى، والجزء العسكرى بمطار القاهرة الجوى لحصر المعدات الواردة لصالح القوات المسلحة من الكتلة الشرقية وبعض دول أوروبا، وكان هناك فى كل موقع شخص جندوه لهذه المهمة.

توالت الرسائل الصادرة والتى يسيطر عليها علاء الدين بمعرفته شخصيا تحوى سجلا ضخما من المعلومات. ولم يصدق الإسرائيليون أنفسهم وهم يستقبلونها من فرط أهميتها وواقعيتها، وأزاحوا فكرة إنشاء شبكة إضافية بالقاهرة أو الاستعانة بأشخاص آخرين.

أصبح علاء الدين رجلهم الأول، ولم تمض الأمور هادئة أبدا فإنه كان أخطر بكثير من توقعهم ففى كل مرة يطلب المبالغ أضعافا ليغطى تكاليف العملية، ويزيد رصيده فى كل مرة حتى أنهم أرسلوا إليه تهديدا بتوقيف التعاون إذا أصر على طلب الزيادة.

أمعن علاء الدين فى عناده وامتنع أن يرسل إليهم أى معلومات، وقبل أن يتملكه القلق، كانت هناك رسالة باللاسلكى تطلب منه التوجه للبنك لاستلام طلباته. وواثقا يبتسم علاء الدين مع قائده فإنهم سيأخذون كل المعلومات الواردة إليهم كما هى تماما.

أسلوب علاء الدين أن يرسل إليهم ما يتوقع أن يطلبونه منه قبل أن يفكروا فى ذلك ليفاجئهم ويحصر تفكيرهم فيما يريد. فور أن أرسلوا النقود بعث إليهم بشفرة الاتصال اللاسلكى لعناصر الصواريخ على شبكة خط القناة، فاختبروها فوجدوها صالحة وعاملة بالفعل ، واستقبلوا عليها رسائل المصريين المتبادلة بين القواعد وقياداتها، وفسرت دفاتر الشفرة إبهام رموز الإشارات، وصدقوه. لكن بالطبع كانت الشفرة والترددات هى الاحتياطية وقد نفدت مدة صلاحيتها وصدرت الأوامر باستمرار العمل بها على الشبكة الثانوية يعيدون الإرسال عليها بإشارات ومهام الأسابيع الماضية فى جدية ونظام بالغ الدقة، بينما الشبكة الرئيسية فى سكون تام، والشفرة الخاصة بها قابعة فى خزائن الوحدات.

اعتقد الإسرائيليون أنهم حازوا كنزا رائعا، فأرسلوا يشكرون، وظلوا يتابعون إشارات وتحركات وحدات الصواريخ المصرية التى لم تكن تتم أبدا إلا فوق خرائط القادة الإسرائيليين وحدهم.

شحنات الصواريخ والأجهزة الفنية والأسلحة تصل إلى مصر تباعـا، وبعضـها يخضع من البداية لنظام صارم من الدولة المنتجة، فلم يخرج سرها أبدا عبر الطريـق ولا الموانئ ولا الوحدات. وهناك شحنات مرصودة من بدايتها وقوائم الشـحن سـلمت منهـا صورا إلى عملاء الموساد قبل المصريين، وهذه كانت تصلهم أيضا عن طريق رسائل علاء الدين فى الوقت المناسب فيقارنون ويجدون أنه يعمل بجد وصدق وإخلاص فى خدمتهم.

تزداد أهمية عامل الوقت كلما مرت الشهور ويتغير القادة، وتتوالى المهام على علاء الدين الذى أصبح يضج بالشكوى من كثرة طلباتهم فى الوقت الذى يصرخون فيه من أرقام فواتيره الكبيرة، يدفعونها صاغرين.

يترك علاء الدين مجموعته تراقبه عندما يتجول مع الحسناوات فى ملاهى القاهرة، ومـع أسرته فى الأماكن الفخمة بعربته المكيفة فى استعراض واضح للنعيم الذى صار يرفل فيه. وزيادة فى التمويه أرسل إليهم أنه ترقى فى نشرة يوليو إلى رتبة العميد، فأرسلوا يهنئونه ويطلبون معلومات أكثر سرية.

نشطت الاتصالات بين واشنطن وموسكو وتل أبيب والقاهرة، يتباحثون جميعـا لتهدئة عوامل الحرب التى بدت علاماتها. بينمـا العواصـم العربيـة تتشـاور بوسـائل ومؤتمرات ومبعوثين. وأصبحت المنطقة تموج بتيارات غاية فى القـوة، وكلهـا مبهمـة، والجميع يتساءلون متى تنتهى دوامة حرب الأعصاب؟ وارتفعت درجـة الاسـتعداد علـى الجبهة المصرية والإسرائيلية ثم السورية والسؤال دائم الإلحاح عـن مـدى جديـة هـذه المظاهرات العسكرية.

عاجل للغاية وينفذ فورا: مطلوب تحركات رئيس الأركان اعتبارا من الغـد أول أكتوبر. كانت هذه الرسالة العاجلة التى وصلت على جهاز اللاسلكى لعلاء الـدين وعليهـا العديد من علامات الأهمية والفورية. فى هذا التوقيت الصعب يطلبون شيئا هاما وصـعبا. لماذا؟.. دائما المعلومات مطلوبة لتخطيط الأعمال والمهام وتوقع تصـرفات الخصـم. إذا هناك أمر حيوى بشكل قوى مريب.

علاء الدين – إنهم يعدون شيئا أفكر فيه الآن. لابد أن نحدد الوقت والمكان بدقة. إذا صدق ظنى فإنهم يخططون لعملية جريئة وربما تكون انتحارية لخطف أو قتـل رئيس الأركان على أرض مصر.

القائد – أفكر بالفعل فى طلبهم الغريب العاجل، ربما يعدون لقصـف المنطقـة التـى سيتواجد بها بالطيران أو الصواريخ بعيدة المدى كما حدث مـع الفريـق عبد المنعم رياض.

علاء الدين– لقد حدث ذلك بالصدفة عندما كان يتفقد وحدات الجبهة جنوب الإسـماعيلية، ولا أظن أنهم يخططون لذلك هذه المرة.

القائد – إذا فيم يفكرون الآن؟

علاء الدين – لو كنت قائدا للجبهة الجنوبية لجيش إسرائيل فإنى أستطيع أن أفكر بداورية أدفعها خلف الخطوط بالهيلوكبتر إلى غرب السويس، وتحتل كمينا للإيقاع برئيس الأركان بعد أن يحصلوا على خط مروره والتوقيتات.

القائد – خطتك مجنونة بالفعل، فهناك أجهـزة الـرادار وعناصـر الـدفاع الجـوى والحراسات الأرضية إلى خطوط ووحدات الدفاع العديـدة، أيضـا مـن المعقول التفكير هكذا.

علاء الدين – " تيجى تصيده يصيدك". سوف نفعلها

القائد – بمعنى..؟

علاء الدين – نرسل إليهم المطلوب كله !!

ضحك القائد بشدة وهو يقول يبدو أنك ستفعل ذلك، ونظر إليه بقـوة ثـم أردف باسما فى ثقة سننجزها محكمة جدا كما يريدون تماما. ثم كانت هناك سرية جـاهزة مـن كتيبة الاستطلاع القريبة صدر إليها الأمر بالتحرك الفورى إلى منطقة وادى حجول وسوف تتلقى المهمة عند وصولها على الأرض. وعند العصر كان قائد هذه السرية يحتل مواقعـه بعناية مدروسة لتحيط الموقع المختار، بينما كانت فصيلة منها قد احتلـت موقعـا جنـوب المنطقة للتدخل كاحتياطى قريب إذا لزم الأمر.

أرسل علاء الدين رسالته وكانت بالغة الأهمية، تقول كلماتها "هام جدا وعاجـل للغاية: المرور المطلوب سيتم على مواقع الكتيبة ٥٣ صواريخ أرض/ أرض بمنطقة وادى حجول على طريق السويس فى السابعة مساء اليوم لتفقد الإنشاءات الجديدة واختبار درجة الاستعداد، ثم يعود للقاهرة للمبيت ويتوجه فى التاسعة صباحا إلى قيادة الجـيش الثـانى". انتهى.

فى هيئة العمليات كان مدير العمليات ومدير المخابرات الحربية وقائد القـوات الخاصة ومساعديهم يقفون حول الخريطة المجسمة للمنطقة يحركون القطع الحربية كمـا يفعلون فى دور الشطرنج، بينما الأعصاب هادئة، والكل يفكر فى الخطوة التالية. لم يكـن صعبا توقع العملية المقبلة لعناصر القوات الإسرائيلية فإن هدفها لابد أن يكـون الحصـول على رئيس الأركان، وكان ذلك رائعا.

عناصر المراقبة بالنظر والصوت على الحد الأمامى للـدفاعات جنـوب مواقـع السويس وفوق مشارف جبل عتاقة رصدت طائرة هيلوكبتر صغيرة تطيـر علـى ارتفـاع منخفض جدا قادمة من اتجاه الشرق عبر الخليج تكاد تلامس الأمواج، حتى أنهم ظنوا أن

هناك زورقا يبحر فى الخليج، ثم رصدوها ترتفع لتعبر سلاسل ارتفاعات جبل عتاقة، وواصلت طيرانها الواطى حتى جنوب مواقع كتيبة الصواريخ.

كان توقع القادة المصريين صحيحا تماما، فعندما غابت الشمس فإن الطائرة هبطت فى الظلام جنوب نقطة الشرطة العسكرية عند بداية المدق الواصل من طريق السويس إلى وحدة الصواريخ بمسافة أربعة كيلومترات، وكانت الرياح شمالية غربية تحمل الأصوات بعيدا فى اتجاه الجنوب حيث فصيلة الاحتياطى القريب. وكانت أنوار العربات المتحركة على طريق السويس تمضى شرقا وغربا فى اطمئنان كامل.

كانت العربة الخاصة برئيس الأركان فى نفس الوقت تمرق على الطريق متجهة شرقا يرفرف فوق مقدمتها بيرق القيادة وأمامها سيارات الاستطلاع والوقاية وخلفها بعض العربات الأخرى للقادة المحليين، ولكن لم يكن داخلها سوى سائقيها فقط.

المبنى الصغير على مفرق الطريق والمدق الذى تستخدمه الشرطة العسكرية مقرا لها، يحيطه عدة براميل مدهونة باللونين الأبيض والأحمر، صار خاليا، وزرعوا أمامه وجانبه شواخص من الخشب والكرتون بأماكن جنود الخدمة، وأضئ نور خافت داخله، وفتحت السدادة المتحركة التى تستخدم للسيطرة على تحركات الطريق، وبدت الأمور طبيعية للمراقب من بعيد فى ظلام الليل.

كان لابد لقوة الإغارة الإسرائيلية أن تبتعد مسرعة عن منطقة هبوط الهيلوكبتر وتتجه بسرعة وهدوء نحو المبنى الهدف. ذلك فى الوقت الذى كانت فيه قوة الكمين المصرية تعدل أوضاعها بسرعة متتبعة العدو بأجهزة المراقبة الليلية فى مهارة وحذر شديدين فليس مسموحا بالخطأ فى مثل هذه المواقف.

تجمعت قوة الإغارة حول قائدهم فى تشكيل التقدم شمالا، يقتربون حتى مسافة الأمان قبل الهدف، ثم توقفوا يحددون ويدققون المهام والاتجاهات. وكان توقفهم بالقرب من خط السماء قبل التبة العالية المشرفة على تقاطع الطريق حيث يمكن التحديد بالنظر المباشر، واقتربوا من قائدهم أكثر يستمعون للتعليمات الأخيرة.

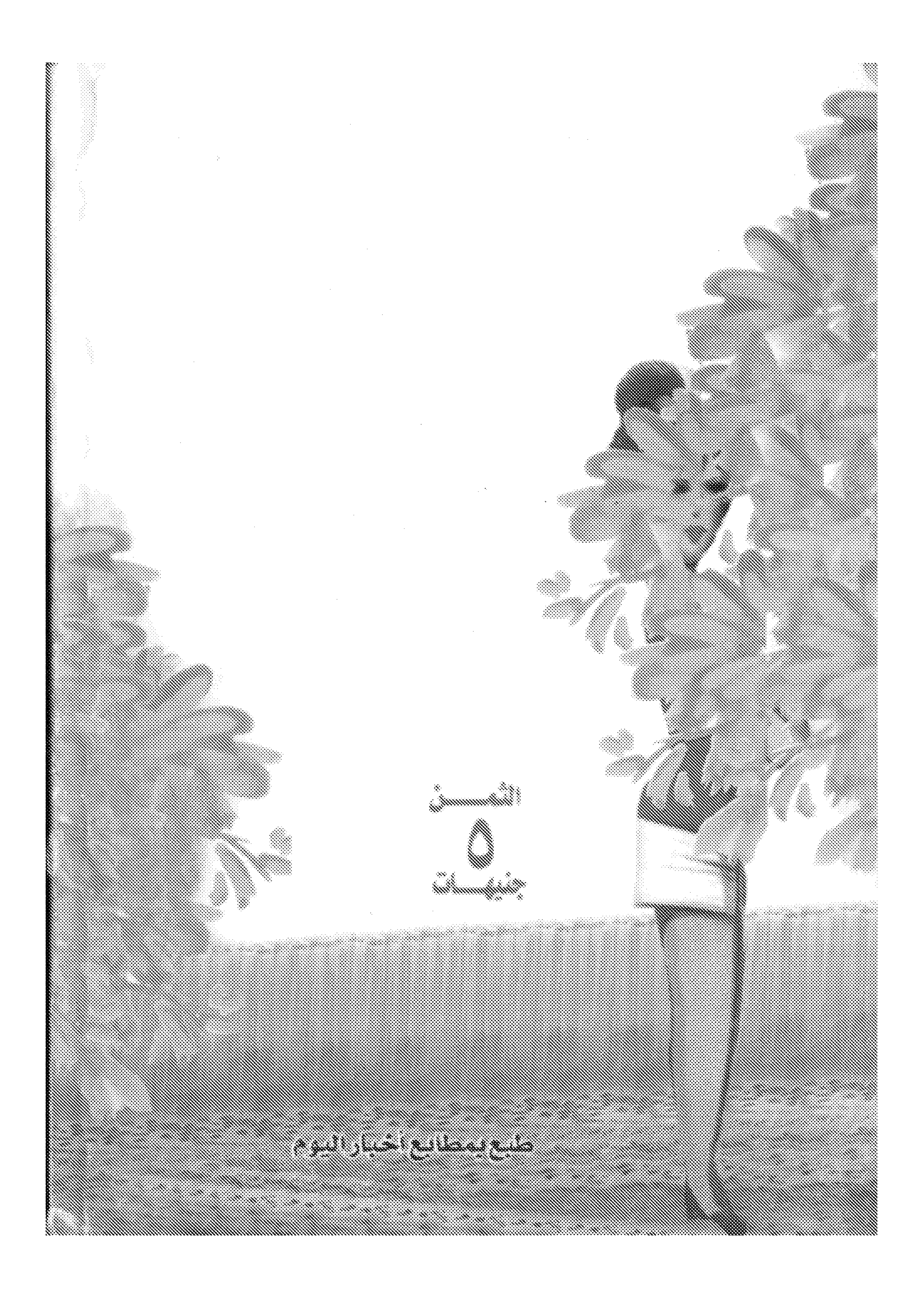
أحكمت الدائرة تماما حول قوة الإغارة، فإن فهود الاستطلاع المصرية كانت تتحرك فوق رمال وادى حجول فى الظلام بلا أصوات كما لو كانوا فى أرض التدريب ينفذون طابورا هادئين صامتين حتى ضاقت المسافة بينهم وبين القوة المغيرة فاستطاعوا إحصاء عددهم واختار كل منهم هدفه .

الطلقة الأولى كانت لقائد الكمين المصرى أتبعتها نيران باقى القوة وأطلقت قذائف مضيئة حولت المنطقة إلى نهار كامل وضحت فيه الرؤية فدققوا التصويب. ولم يتمالك قائد فصيلة الاحتياطى فأمر بتدمير الهيلوكبتر. رامى ال..آر..بى..جى أهدى للطائرة طلقة فريدة فاشتعلت على الفور.

لم تدم المعركة الصغيرة سوى بضع دقائق حسمتها المفاجأة والمبادأة وإحكام التخطيط وقوة النيران. ولم يكن علاء الدين ليفوته هذا الحفل النادر الذى لا يتوقع أن يتكرر أبدا فكان إلى الجوار مع قائد وحدة الصواريخ يراقبان من مركز قيادته والفرح يغمرهما، وانطلقا معا يعاينان على ضوء مصابيح السيارات جثث القتلى الإسرائيلين مبعثرة فى منطقة الكمين وقد تناثرت أسلحتهم إلى جوارهم. المثير انهم كانوا جميعا يرتدون ملابس الشرطة العسكرية المصرية. واستكملت الصورة أبعادها كما توقع تماما، وانطلق إلى جهاز اللاسلكى الكبير يبلغ عن الأحداث، يسبق البلاغات العسكرية والرسمية عبر الشبكة الإسرائيلية.

تصادف فى هذه الليلة أنه مر واحد وثلاثين شهرا على بداية تجنيد علاء الدين، وهى فترة كافية تماما، وكان من المحتم أن يتزامن توقيت تنفيذ العملية مع القبض على أربعة عشر فردا فى القاهرة والإسكندرية والسويس فى وقت واحد وأولهم ميشيل وليليان. ويرسل علاء الدين فى تقريره الأخير للموساد شكرا على الطريقة المصرية، فى رسالة مفتوحة عبر الجهاز اللاسلكى والذى رفع الهوائى الخاص به فوق مبنى المخابرات، والتقطوا إشارته ولم يعلقوا عليها أبدا. ثم أربعة أيام فقط مرت، واجتاحت القوات المصرية خط بارليف على طول مواجهة القناة.

* * *


الثمن
٥
جنيهات
طبع بمطابع أخبار اليوم